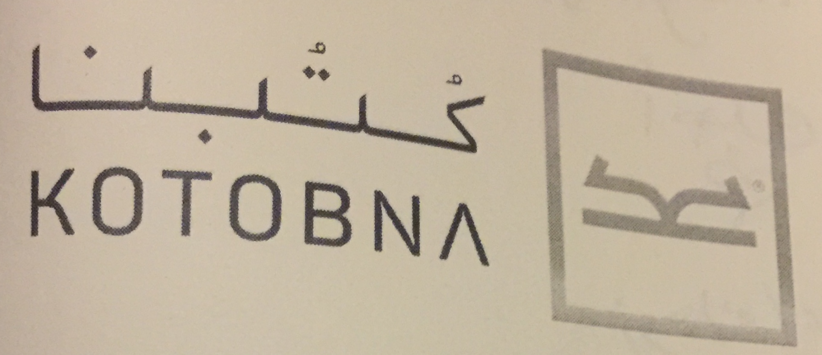

عمرو كامل عمر
رواية
1986
ليلة تبدلت فيها الحياة



١٩٨٦ ليلة تبدلت فيها الحياة : عمرو كامل عمر
طبعة منصة كتبنا ٢٠١٨
رقم الإيداع: ٢٠١٨/٢٧٤٨٥
ردمك: ٩٧٨-١-٦٤٥١٦-٨٤١-٦

عمرو كامل عمر

1986
ليلة تبدلت فيها الحياة

رواية



شمال أوكرانيا، مقاطعة كييف، مدينة بريبيات، الجمعة 25 إبريل 1986، الساعة الثانية ظهرًا

كانت عقارب الساعة تشير إلى الثانية ظهرًا، حينما أنهت مارجاريتا ورديتها اليومية في متجر بريوزكا Beryozka لبيع السلع الغربية من مواد غذائية ودخان وكحوليات بالعملات الأجنبية. كان هذا المتجر -الكائن بشارع دروزبي نارودیف Druzby Narodiv بالمنطقة الغربية من مدينة بريبيات- كان فرعًا ضمن سلسلة متاجر البريوزكا التي انتشرت في دول الاتحاد السوفييتي في نهاية الخمسينيات كتطبيق لرؤية الانفتاح ونبذ الستالينية والتقارب بين المعسكر الشيوعي والرأسمالي التي بدأ العمل بها بعد ويلات حروب عالمية راح ضحيتها قرابة 100 مليون نفس بشرية.

دخلت مارجاريتا إلى غرفة العاملين لتغيير ملابسها، ثم انصرفت مسرعة لتأخذ ابنتها كلارا ذات الثلاثة أعوام من روضة الأطفال الكائنة بالجانب المقابل من الشارع. تراها فتشير إليها لتأتي وتجثو على ركبتيها باسطة ذراعيها إليها، فتقبل كلارا بضحكة بريئة وحضن دافئ ينسي مارجاريتا تعب اليوم، فتحملها وتسير بها شرقًا إلى متجر الخضروات والفاكهة لتشتري بعض احتياجات المنزل، ولا تنسى أن تشتري لكلارا ثمرات الفراولة

التـي تعشـقها. فتفـرح كلارا بذلـك وتطبـع قبلـة حانيـة عـلى وجنـة مارجاريتـا الورديـة، لتمسـح مارجاريتـا عـلى شـعر كلارا الكسـتنائي الطويـل المـوج وتقبـل فمهـا الصغـير، ثـم تنزلهـا إلى الأرض وتقبـض عـلى يدهـا لتمـضي بهـا شـمالًا صـوب بيتهـا الكائـن بشـارع سـبورتيفنايا **Sportivnaya**.

تنظـر كلارا كعـادة كل يـوم جهـة اليمـين إلى عجلـة الملاهـي الـدوارة بكبائنها الصفـراء، والتـي تمُـر بهـا في طريقهـا إلى المنـزل، فتجـذب تنـورة والدتهـا وتشـير بإصبعهـا إلى العجلـة، فتجيبهـا مارجاريتـا بـأن الأمـر قـد بـات وشـيكًا، ولم يتبـقَّ سـوى خمسـة أيـام عـلى افتتـاح حديقـة الملاهـي بالمدينـة بشـكل رسـمي، وتعدهـا بأنهـا سـتحضر الافتتـاح يـوم عيـد العـمال الـذي بـدأت زينتـه تمـلأ شـوارع المدينـة وتكسـوها باللـون الأحمـر.

تصعـد مارجاريتـا إلى شـقتها في الطابـق الثامـن فتخـرج المفتـاح مـن جيبهـا وتفتـح البـاب بهـدوء شـديد، وتهمـس في أذن ابنتهـا أن تدخـل بهـدوء هـي الأخـرى وأن لا تحـدث ضوضـاء؛ لكيـلا تزعـج والدهـا النائـم في الغرفـة. ثـم تتوجـه إلى المطبـخ لتعـد وجبـة الهولوبتـسي؛ ملفـوف الكرنـب الـذي يحبـه كثـيراً زوجهـا فيكتـور، الشـاب الثلاثينـي الـذي يعمـل في وحـدة الإطفـاء التابعـة لمنطقـة تشـيرنوبل.

تخلـع كلارا حذاءهـا وتطيـح بقدميهـا كل فـردة في اتجـاه، ثـم تنـزل بجسـدها الضئيـل أسـفل الأريكـة لتحـضر دميتهـا صوفيـا، لتُجلسـها إلى جوارهـا عـلى الأريكـة وتـأكل باسـتمتاع ثمـرات الفراولـة التـي غسـلتها لهـا أمهـا بعنايـة.

فـور الانتهـاء مـن طهـي الطعـام بعـد سـاعتين، توقـظ مارجاريتـا فيكتـور وكلارا التـي تسـللت للنـوم بجـوار أبيهـا، بينـما انشـغلت مارجاريتـا بغسـل الملابـس المتسـخة، واكتفـت ببعـض الدقائـق تسـترخي فيهـا عـلى الأريكـة.

يجلس الثلاثة على الطاولة لتناول الطعام. يَفرغ فيكتور من طعامه سريعًا فيقوم إلى الحمام ليتنظف ويغسل أسنانه، ثم يخرج إلى غرفة نومه ليغير ملابسه ويستعد للنزول. يقف للحظات يهندم ثيابه ويصفف شعره البني القصير أمام المرآة، فيلمح مارجاريتا تقف خلفه صامتة تنظر إليه بعينين مكسورتين. فيستدير إليها ويشكرها على الطعام الشهي، ويعدها باحتفال يليق بها في الإجازة الأسبوعية القادمة بمناسبة عيد ميلادها السابع والعشرين، فتستجيب بابتسامة هادئة ونظرة تحمل شوقًا إلى وجوده بجوارها في الليل، ولا تزيد عن ذلك لتفهمها المسؤولية الكبيرة الواقعة على كاهله كرجل إطفاء لمفاعل نووي. يعلم فيكتور ما تحمله نظراتها، فيمسح عينيها المثقلتين بالدموع كالسحاب الذي يوشك أن يمطر، ويضمها إلى صدره كأنه يعتذر إليها دون تسويغ، ثم يُقَبِّلها ويضحك إليها بحب، ويضم ابنته كلارا ويقبِّلها ثم ينصرف.

يذكِّر زوجته على الباب قبل المغادرة:

- لو في إمكانك المرور غدًا على أنطون في المتجر بعد العمل، سيسلمك شيئًا خاصًّا بكلارا.

- وما هو هذا الشيء... فيكتور! يا إلهي! أغلق الباب، تبًّا لعادتك السخيفة.

***

تشيرنوبل، ليلة السبت 26 إبريل، الساعة 1:23 صباحًا

تستيقظ بريبيات على صوت انفجار مدوٍّ، لا يدري أحد ما الذي حدث على وجه التحديد. الشكوك تتجه بداهةً صوب مفاعل تشيرنوبل الواقع على مقربة 15 كم من جنوب بريبيات. يفزع الناس من مضاجعهم فيهرعون إلى طريق لينين في برد الليل القارس ويتكدسون أعلى الجسر الجنوبي في أقصى المدينة أعلى شريط القطار ليراقبوا الحدث في ذهول. فتسحر أعينهم لوحة فنية بديعة في السماء لألسنة لهب ملونة بألوان الطيف تفوق في علوِّها سحابة الجرافيت المشتعل الهائلة المشبعة بذرات المواد المشعة الفتاكة، إثر انفجار لُب المفاعل رقم 4 المصنوع من الجرافيت المعالَج بغرض التبريد. بسبب خطأ تقني وقع هذه الليلة أثناء إجراء تجربة صيانة في ضغط التبريد، حدث ارتفاع حاد وسريع في درجة الحرارة أخرج نظام التشغيل عن السيطرة وأودى بحياة العاملين. لم يدرِ هؤلاء المتكدسون المسحورون أعلى الجسر أن هذه اللوحة الجميلة في السماء ما هي إلَّا سيرينا غاوية ترسل ريحها الخفية لتحصد أرواحهم، بجرعات من الإشعاع النووي تزيد عن الـ 500 رونتجن؛ أي تفوق ما حملته قنبلة هيروشيما بقدر 400 مرة، ليمنح التاريخ هذا الجسر لاحقًا عن جدارة لقب «جسر الموت».

يتملك الخوف من قلب مارجاريتا، لعلمها يقينًا أن زوجها فيكتور قد انتقل لمكان الحادث. لكن لصعوبة الحركة بكلارا والخوف من الخروج إلى الشارع ليلًا في هذا البرد الشديد لم تتمكن من مزاحمة الجيران على جسر الموت، والتزمت بيتها. لم تكن تدري ماذا تفعل؛ حتى محاولة الاتصال بوحدة المطافئ للاطمئنان أو الوصول لأي معلومة لم تكن مجدية، فقد انقطعت الاتصالات عن المدينة بأكملها. جلست مارجاريتا تلتحف بالغطاء تحتضن ابنتها المذعورة وتحاول طمأنتها، وتسأل نفسها «فمن يُطمئنني وأنا على مشارف الموت من القلق؟!».

***

تمضي مارجاريتا ليلة مرعبة بعد وفود الأخبار بأن قوات الإطفاء تعمل بأقصى طاقتها لاحتواء الانفجار، بلا ذكر لأي تفاصيل على عادة العُنْجُهِيَّة السوفييتية.

لم تهنأ بلحظة نوم حتى بزوغ الصباح، انتظرت حتى تأخذ كلارا كامل راحتها وتستيقظ، فتنزل بها لتتفقد الحال في الشوارع. كانت المرة الأولى لمارجاريتا أن تتغيب عن عملها بغير إذن. لم تجد في الشوارع غير الثرثرة حول وقوع انفجار في المفاعل النووي بمقاطعة تشيرنوبل. كان أطفال بريبيات يلعبون الكرة في الشوارع، وسكَّان المدينة لا يزالون يتوافدون على جسر الموت لمشاهدة ألسنة اللهب الملونة، والتي ظلت تتصاعد في السماء ناشرة سمومها حتى العاشر من شهر مايو التالي. العجلة الدوارة بحديقة الملاهي تم تشغيلها بشكل استثنائي وتوافد الناس عليها في بلاهة، وسائل الاتصال مقطوعة عن المدينة، الإذاعة الرسمية في عالم موازٍ، قادة الحزب الشيوعي بدأوا فعليًّا في إنقاذ أرواح ذويهم وإجلائهم عن المدينة

المنكوبـة في غفلـة مـن النـاس، ومارجاريتـا المسـكينة في حـيرة مـن أمرهـا، لا تـدري مـاذا تفعـل ولا إلى أيـن تتجـه، تذهـب إلى مركـز الإطفـاء بالمدينـة فـلا يفيدهـا أحـد بمعلومـة، إلا أن وحـدات الإطفـاء الخاصـة بتشـيرنوبل وبريبيـات انتقلـت كلهـا إلى موقـع الحـدث، وأن الرجـال يـؤدون مهمتهـم عـلى أكمـل وجـه وأن الـكل بأمـان وكل شيء تحـت السـيطرة. ترجـع مارجاريتـا إلى بيتهـا تجُـر خيبتهـا وتغلـق عـلى نفسـها البـاب ولا تـدري كيـف تتـصرف.

تمـضي ليلـة ثانيـة يعيشـها سـكان بريبريـات في التيـه. 36 سـاعة مـرت حتـى الآن بغـير أي بيـان رسـمي يخـبر النـاس بحقيقـة الكارثـة. مركبـات عسـكرية تمـلأ الشـوارع والميادين، طائـرات هليكوبـتر تحلـق في السـماء، كل البيانـات عـلى وتـيرة واحـدة بـأن الأمـر تحـت السـيطرة، وأن كل العاملـين يخضعـون للاختبـارات والتحاليـل الطبيـة اللازمـة. الجميـع يتخبـط، وفي أوج عـصر البحـث الـذري، لا يحتفـظ أحـد بجهـاز لقيـاس الجرعـات الإشـعاعية **Dosimeter** ليتبـين الحقيقـة بنفسـه.

***

بريبيات، ظهر الأحد 27 إبريل 1986

حصدت السموم الإشعاعية 31 قتيلًا في محيط الانفجار، فضلًا عن المصابين الذين تم نقلهم إلى مستشفيات بريبيات وكييف وموسكو، وزحف الإشعاع خلال يوم وليلة بفعل الريح إلى مساحة تزيد عن الثلاثين كيلومترًا. ومع عجز القيادة السوفييتية عن احتواء حقيقي للكارثة المتفاقمة، والفشل في إظهار الحياة في بريبيات كأنها طبيعية، بحلول ظهيرة يوم الأحد 27 إبريل، بدأت الإذاعة في مناشدة المواطنين بالإخلاء الفوري لمنازلهم، فظلت تردد:

«انتباه أيها الرفاق الأعزاء: فإن مجلس نواب الشعب يحيطكم علمًا أنه بسبب حادث في محطة تشيرنوبل للطاقة النووية في مدينة بريبيات نتج عنه تسرب إشعاعات ضارة، تم اتخاذ التدابير اللازمة من قِبَل الحزب والهيئات السوفييتية، ومن قِبَل وحدات الشرطة. ومع ذلك، ولأجل توفير السلامة الكاملة للمواطنين، خاصة الأطفال، فإنه من الضروري إخلاء المدينة مؤقتًا إلى نقاط الإخلاء في إقليم كييف. ومن أجل القيام بذلك، بدءًا من اليوم، 27 إبريل، الساعة الثانية ظهرًا، سيتم توفير حافلات، يرافقها ضباط الجيش وممثلو لجنة الحزب في المدينة لإخلاء البيوت.

يرجى أخذ بطاقات الهوية، وأخذ الضروريات فقط، والمواد الغذائية على قدر يوم واحد.

من جانبهم سيقوم مديرو المشاريع والمؤسسات بتوفير العمالة اللازمة لضمان سير العمل في المدينة بشكل طبيعي. جميع الشقق ستكون تحت حراسة ضباط الجيش أثناء عملية الإخلاء.

أيها الرفاق، يرجى ترك النوافذ مفتوحة، وغلق جميع الأجهزة الكهربائية والغاز وصنابير المياه.

يرجى الحفاظ على الهدوء والنظام خلال هذا الإخلاء المؤقت».

دفعت الحكومية الأوكرانية بـ 1100 حافلة جلبتهم من محطات كييف، مما أحدث أزمة كبيرة في النقل والمواصلات العامة في العاصمة. كل ذلك بغرض إجلاء سكان بريبيات وإيوائهم في مناطق مجاورة. كل شيء قد تبدل في لحظة! فذهبت السكْرة، وحلَّت مكانها الحسرة وفقدان الأمل.

***

أُسقط في يد مارجاريتا فور استماعها للبيان، لم تدري ماذا تفعل وكيف تتصرف؛ ماذا تأخذ وماذا تترك، أين زوجها وما هو مصيره وهل ستلقاه مرة أخرى أم لا... لم تدبر شيئًا من أمرها، ولم تأخذ من المتاع سوى حقيبة صغيرة بها جزء من ملابسها وملابس ابنتها وزوجها، والنقود والمشغولات الذهبية، وبرواز به صورة تجمع بينها وبين فيكتور، مع بعض الطعام لكلارا في حقيبة ورقية. ثم أخذت ورقة بيضاء وكتبت عليها بعض الكلمات بخط عريض وألصقتها على باب المنزل من الخارج.

كانت كلارا تجلس على الأرض في الصالة تلعب بدميتها صوفيا، فحملتها

مارجاريتا وجذبت منها دميتها وأطاحت بها على الأريكة وسط صراخ لم تستطع التعاطف معه.

صعدت مارجاريتا سلمات الأتوبيس بخطوات مثقلة بالحسرة وتأنيب الضمير، بين ناري التحقق من مصير زوجها، ومن إنقاذ ابنتها من وحش الإشعاع الخفي المحيط بها من كل جانب. تسألها كلارا سؤال قلق عن أبيها، ولا تستطيع مارجاريتا الرد غير أنه في العمل وقد يلحق بهما لاحقًا.

استجاب الجميع للبيان، ورحلوا على أمل العودة في أقرب وقت، رافضين تصديق صوتهم الداخلي بأنها النظرة الأخيرة فلْيُمْعنوا فيها.

***

بريبيات هي إحدى تسع مدن كبيرة مغلقة تم إنشاؤها في الاتحاد السوفييتي لخدمة مشروع تشيرنوبل النووي الضخم والعاملين به. شيدت بين عامي 1970-1979، وكانت مدينة متكاملة تضم كل وسائل العيش والرفاهية المطلوبة من سكن ومدارس وترفيه ورياضة ومستشفيات وروضات وكل شيء. ووصل تعدادها السكاني إلى 49.000 نسمة.

من بين 350.000 مواطن سوفييتي أُجبر على الرحيل، كان سكان بريبيات أوفر حظًّا من غيرهم؛ حيث صدر قرار بإسكانهم لاحقًا في مدينة سلافوتيتش التي بدأت أعمال البناء فيها بعد ستة أشهر من وقوع الكارثة (أكتوبر 1986) وتم الانتهاء منها في أكتوبر 1988. أما سكان تشيرنوبل وبلاروسيا العاملين في الحقول الزراعية الريفيين البسطاء؛ فقد أُجبروا على النزح وإخلاء بيوتهم بلا ملجأ ولا مأوى، حتى إن بعضهم لم يجد إلا البقاء والتعايش والمعاناة في صمت والاستسلام للمصير المجهول،

رغم وعود الحكومة الأوكرانية بتوفير حياة كريمة لهم وطعام نظيف، إلا أن ما كانوا يجودون به عليهم لم يكن ليكفي كسرة خبز.

يُقِل الأتوبيس مارجاريتا إلى إحدى قرى كييف الفقيرة، مع تسليمها مبلغ 200 روبل، وتوصيات من رجال الشرطة للجميع بالتراحم والتآخي والعيش في سلام، ووعود بعودة الأوضاع إلى ما كانت عليه خلال أيام.

سألت مارجاريتا رجال الشرطة قبل المغادرة عن مصير زوجها، فأخبروها متلطفين بأن الأخبار توافدت إليهم بمقتل 31 شخصًا من العاملين في الموقع ومن رجال الإطفاء، لكن لا يمكنهم الآن التحقق من الأسماء، ووعدوها بأن يخبروها خلال أيام، وأن كل شيء سيصبح على ما يرام.

لم يمضِ يومان حتى وصل مارجاريتا خبر وفاة زوجها فيكتور، وأن جثث رجال الإطفاء -الذين واجهوا السموم المشعة والحريق بشجاعة وبغير أي احتياطات ملائمة- قد انتقلت إلى مقبرة ميتينسكو Mitinskoe بموسكو في تابوت من الزنك محكم الإغلاق، وأنهم قد تم تكريمهم ومنحهم لقب بطل الاتحاد السوفييتي.

كان التعتيم المريب الذي خيم على الحادث قد هيأها لتقبل الخبر بصمت وبغير انفعال، لتجلس بعد ذلك في غرفتها تبكي بكاءً مريرًا وتشعر بأن ظهرها قد قُصِمَ بغير أمل في الشفاء، وأن حياتها قد تجمدت واكتست بجليد أوكرانيا.

***

تمضي الأيام ووعود السوفييت بالعودة القريبة تزداد فتورًا وتراخيًا، حتى صار التلميح إلى إمكان بقاء الوضع إلى ما بعد الشتاء القادم، حيث

إن بربيات هي أخطر المدن وأشدها تأثرا بالإشعاع. حتى تبين للجميع بمضي السنوات أنه لا يمكن العيش في بريبيات قبل عام 2036.

كان التستر على الحادث أقبح من الأسباب التي أدت له؛ ففي الوقت الذي ظلت فيه الجهات الرسمية ممتنعة عن الاعتراف بوقوع كارثة بيئية هي الأكبر من نوعها، كسرت الجهات السويدية المعنية هذا التعيتم؛ حيث رصدت أجهزة استشعاراتها ارتفاعًا ملحوظًا في النشاط الإشعاعي واجهت به الحكومة السوفييتية التي بدورها ظلت ترفض الاعتراف به. حتى أبلغتها الحكومة السويدية في نهاية المطاف بأن تقريرًا تم إعداده للهيئة الدولية للطاقة الذرية سيتم إرساله. فهنا فقط أذاعت الحكومة السوفييتية في الساعة التاسعة من مساء يوم الإثنين 28 إبريل في البرنامج الإخباري التليفزيوني على قناة فريميا Vremya بيانًا مقتضبًا لم يتجاوز العشرين ثانية، جاء فيه:

«تعرضت محطة تشيرنوبل للطاقة النووية لحادث أدى إلى تضرر أحد مفاعلاتها. جار الآن إصلاح آثار الحادث وتقديم المساعدة لكل المصابين. وتم تكوين لجنة للتحقيق».

ثم سخَّرت الصحف النظامية للتمجيد في بطولات رجال الإطفاء البواسل والعاملين بالمفاعل، وصب جام الغضب على الدعاية والبروباجاندا الأمريكية المغرضة التي أحدثت سحابة مسمومة معادية للسوفييت، للتغطية على جرائمها وجرائم حلف الناتو ضد الأمن والسلام.

أصيب الأوكرانيون بالذعر مع تطاير الأخبار وتناقل الصحف، وزاد الإقبال على تناول الفودكا بشراهة؛ حيث راجت الإشاعات بأن الفودكا تقي من أخطار الإشعاع. وفي المقابل حذرت بعض الصحف من هذه

الخرافات، ونصحت المواطنين بتناول الشاي والكرنب المطهو في الزيت النباتي والبطاطس والخضروات الطازجة للحد من هذا الخطر.

***

كانت مارجاريتا أوفر حظًّا من العديد من سكان 13.414 شقة بـ 160 مبنى في بريبيات تم إجلاؤهم في يومين؛ حيث كان لها أخٌ أكبر يعيش مع زوجته وابنيهما في موسكو. فلما أخذت قرارها بالرحيل بعد المكث خمسة أيام في المخيم غير الآدمي والسفر إليه، وصلت إلى كييف واتصلت به وطمأنته عليها وعلى كلارا وأخبرته بوفاة فيكتور فاغتم وحزن لذلك كثيراً، ووجدت منه إصرارًا وترحابًا شديدًا على انتقالها وكلارا للعيش معه، وأن هناك غرفة مريحة جاهزة لاستقبالهما، واتفقا على موعد ينتظرها فيه.

خضعت مارجاريتا وكلارا ككل الوافدين إلى موسكو من منطقة الإشعاع المحظورة لاختبارات دقيقة ونظام تنظيم جاف مخصوص للملابس الملوثة.

كان ألبرت البالغ من العمر 38 عامًا في انتظارهما على شريط القطار، فاستقبلهما بعناق طويل، ثم حمل عن أخته أمتعتها واستقلوا سيارة خاصة إلى بيته المتواضع في شارع أوليتسا أودارنيك **Ulitsa Udarnik**، حيث كانت زوجته أولجا في انتظارهم هي وابنها جوزيف البالغ من العمر 7 سنوات.

أخذت مارجاريتا وكلارا حمَّامًا دافئًا طال الاشتياق إليه، وارتديا ملابس جديدة قد اشترتها لهما أولجا فور علمها بمجيئهما، وتناولوا جميعًا عشاءً دسمًا خلدت بعده مارجاريتا وكلارا إلى نوم عميق.

في صباح اليوم التالي ذهبت مارجاريتا لزيارة مقبرة ميتينسكو ومكثت هناك ساعة، ثم عادت إلى منزل أخيها تعيش ذكراها وواقعها الأليم.

***

تمـضي الأيـام واحـدًا تلـو الآخـر يشـابه بعضهـا بعضًـا، ومارجاريتـا تعيـش في ضيافـة ألـبرت وأولجـا الطيبـة. بمـرور ثلاثـة أسـابيع، بـدت حاجـة مارجاريتـا مُلِحَّـة إلى المُـضي قدمًـا واسـتئناف الحيـاة ومواجهتهـا بقـوة وصلابـة، وتخفيـف أعبـاء المعيشـة مـن عـلى كاهـل أخيهـا ألـبرت الموظـف البسـيط وأسرتـه.

كانـت مارجاريتـا قبـل عملهـا في بريـوزكا بريبيـات تعمـل صحفيـة ورسـامة كاريكاتـير ناشـئة في جريـدة بيريتـس Perets، الأوكرانيـة الصـادرة في كييـف، وذلـك قبـل الارتبـاط بفيكتـور والانتقـال للعيـش معـه في بريبيـات. فتقدمـت للعمــل في مجلــة كروكوديــل Krokodil الروســية بمقرهــا في موســكو وتــم قبولهـا براتـب مقبـول. برعـت مارجاريتـا في الرسـوم السـاخرة اللاذعـة المنتقـدة للإمبرياليـة الأمريكيـة وللأفـكار البرجوازيـة ولفسـاد بعـض الكبـار والمنتفعـين السـوفييت، مسـتغلة ارتفـاع سـقف الحريـات جـرَّاء سياسـة الانفتـاح والشـفافية «جلاسنوســت» Glasnost، وإعــادة الهيكلــة والإصلاحــات الاقتصاديــة «بيريسـترويكا» Perestroika التـي اسـتهل بهـا ميخائيـل جورباتشـوف عهـده، آخـر عهـود السـوفييت، والتـي أحدثـت انفراجـة في الإعـلام أتاحـت لـه كشـف عــوار الســوفييت للشــعب، وابتعــاث قوميــات الــدول المتحــدة. كان حــادث تشـيرنوبل أحـد غنائـم هـذه السياسـة الإصلاحيـة، والتـي أدت لاحقًـا إلى إسـدال السـتار عـلى الحقبـة السـوفييتية وإعـلان إنهـاء الحـرب البـاردة مـع الأمريـكان، والتـي لم تنتـه في الحقيقـة، وإن تطـورت وسـائلها.

كان قلـب مارجاريتـا يؤججـه نـار تفـوق نـيران تشـيرنوبل في لهيبهـا ولا تجـد مـا يطفئهـا؛ أن يتحمـل زوجهـا عاقبـة اختبـار أمـان فاشـل غـير محسـوب. ظلـت تسـعى بـكل وسـيلة مشروعـة لأن تنـدد بالحـادث وتحيـي ذكـراه، وإلى جـوار نشـاطها الصحفـي انضمـت للحركـة المناهضـة للأسـلحة النوويـة وشـاركت في فعالياتهـا، بـل أصبحـت أحـد كوادرهـا البارزيـن.

هذه الحالة المربكة من العيش لم تعد مع الوقت مريحة لأخيها الذي بدأ يضيق صدره من جرأتها وطيشها، فهو طالما عاش حياته العائلية في هدوء وحذر، محاولًا الهرب وتناسي ذكريات طفولته القاسية؛ بدءًا بشظف العيش، مرورًا بقرارات 1959 التي اتخذها نيكيتا خروتشوف لمواجهة مظاهر التدين في البلاد؛ فأغلق الكنائس وروَّض وصفَّى واعتقل الكثير من رجال الدين، والمواطنين الذين وصل إلى أسماع الـ KGB نمط حياتهم المحافظ وارتياد أبنائهم للكنائس للتعلم والخدمة. كان من ضمن من شملتهم الاعتقالات والد ألبرت، ديميتري؛ الفلاح البسيط العامل بالسكة الحديد. لا ينسى ألبرت هذه الأيام حالكة السواد؛ كان يبلغ من العمر حينها 11 عامًا. يتذكر جيدًا يوم اقتادوا والده من المنزل وكانوا بصحبة جاره ماكسيم. لا ينسى ابتسامة ماكسيم ونظرة التشفي في والده، ولا يدري حتى اليوم ما السبب وراء ذلك. كانت مارتا والدة ألبرت في شهورها الأخيرة من حمل أخته الصغرى مارجاريتا، والتي وضعتها في بيتها الريفي في غياب زوجها الذي مكث في سجنه ثلاث سنين. ولما خرج استقبلته زوجته بمارجاريتا، ولم تتم عليه فرحته لإخباره بوفاة ابنته الوسطى فيودورا منذ عام بسبب الحمى.

مع ازدياد صيت مارجاريتا وتردد اسمها، يتجدد ألم ألبرت من هذه الجروح الزمنية الغائرة، فينصحها تارة وأخرى بإيثار السلامة، وهي ترفض؛ فنار الغضب لفيكتور لم تهدأ بعد. نشبت بينهما مشادة كبيرة في ليلة كان فيها ثملًا وقد بلغ حنقه الأنف، وحينما احتدم الكلام بينهما قام بسبِّها وصفعها على وجهها أمام كلارا حتى قطَر الدم من فمها، ثم طردها وأمهلها يومين لتغادر المنزل. رغم توسلات زوجته أولجا وصريخ كلارا أصر على مقاطعتها نهائيًّا، فحزمت مارجاريتا متاعها المحدود وغادرت

هـي وابنتهـا، وكانـت تدَّخـر بعـض المـال فدفعتـه مقدمًـا لشـقة صغـيرة غرفـة وصالــة في شــارع كومسومولســكايا بيرولــوك Komsomolskiy Pereulok، ومـن يومهـا اسـتقلت بحياتهـا تمامًـا.

***

واجهــت مارجاريتــا قســوة العيــش بمفردهــا؛ لم ترغــب في الــزواج، ولم تحـب أو يتعلـق قلبهـا بأحـد غـير فيكتـور. شـغلت نفسـها بعملهـا وبالنشـاط الاجتماعـي والخـيري، بـدأت تشـعر مـع الوقـت بتغـيرات تـسري في جسـدها؛ فقـد بـدأ يخـف شـعرها ويتسـاقط، وصـارت أكـثر بدانـه، ضعيفـة القـدرة عـلى تحمُّـل الـبرد. أصبحـت دائمًـا متعبـة، قليلـة التركيـز، فاقـدة للشـهية، دائمـة الشـكوى مـن تقلصـات المعـدة وعـسر الهضـم. أصبـح النهجـان لا يفارقهـا، وتغـيرت نـبرة صوتهـا للأخشـن. علمـت مـن ترددهـا عـلى الأطبـاء أنهـا ليسـت الوحيـدة التـي تشـتكي مـن هـذه الأعـراض. وبعـد الكشـف والفحوصـات تبـين لهـا أن الغـدة الدرقيـة أصابهـا القصـور بسـبب اليـود المشـع الـذي تعرضـت لـه في بريبيـات قبـل المغـادرة. إلا أن الأطبـاء طمأنوهـا بـأن حالتهـا حميـدة عـلى عكـس آخريـن تعرضـوا بنسـبة أكـبر للإشـعاع، وأصيبـوا بسرطـان الغـدة. استسـلمت لقضـاء اللـه، وشـكرته أنهـا لم تتجـه ليلتهـا صـوب جـسر المـوت الـذي فتـك بزائريـه. لكـن تملَّكهـا الرعـب عـلى صحـة ابنتهـا ومسـتقبلها مـن هـذا الوحـش الخفـي، والـذي يبـدو أنـه لم يتعـرض لهـا بسـوء حتـى اللحظـة.

مـضى العـام تلـو الآخـر، وشى بهـا أحـد الفاسـدين المنتفعـين الكبـار الذيـن لم يسـلموا مـن قلمهـا السـليط، لكـن يبـدو أن الموجـة هـذه المـرة علـت كثـيراً وطالـت الخطـوط الحمـراء. وصلتهـا التهديـدات المبطنـة بـأن العرفـان بـدور زوجهـا البطـولي لـن يُعفيهـا مـن الاتهـام بمعـاداة الوطـن. مـاذا في وسـعها

تفعل وهي الآن وحيدة شريدة؟ ارتدعت وعدلت تمامًا عن توجهاتها إلى تغطية قضايا الفن والثقافة، ورسم قصص الأطفال.

خافت على ابنتها وأغلقت عليها منافذ الحياة إلا قليلًا؛ بثت في قلبها الخوف من كل غريب، شغلتها برياضة الجمباز واللياقة البدنية مستغلة نحالة جسدها. تفوقت كلارا في ذلك وحصدت الميداليات والبطولات المحلية.

في يوم من أيام عامها السابع لاحظت مارجاريتها انطواءها وعزلتها وخوفها من شيء ما، سألتها فلم تجب، أعطتها الأمان وضمتها إلى صدرها فانهارت في البكاء، أخبرتها بأن أحد المدربين ظل فترة من الوقت يضع يده وقت التمرين على مواضع حساسة بطريقة مؤلمة ومسببة للقشعريرة. ثم أشارت لأمها على هذه المواضع، وقالت لها إنه في آخر مرة بعد التمرين أخذ بيدها إلى غرفته وأغلق عليهما الباب، ثم عرض عليها صورة كان يحتفظ بها في حقيبته أصابتها بالغثيان والقرف الشديد، وطلب منها أن تفعل له مثلها، وهددها إن لم تفعل سيتعرض لأمها بالضرر البالغ، وهي لا تدري لماذا!

عندما سألتها عن اسمه عرفت أنه أخو الواشي القذر الذي أرسله لها منذ عامين رجل الأعمال الفاسد بتهديده المبطن فطردته. انفطر قلبها من الحزن والألم لأنها عاجزة عن المواجهة والرد. طمأنت ابنتها ووعظتها بالحفاظ على نفسها والحذر من ذئاب الإنس. وفي سبيل ذلك ألحقتها برياضة الجودو لبث الثقة فيها وفي إمكانها الدفاع عن نفسها. تفوقت فيها وبرعت، وزادت شخصيتها قوة وصلابة، وصارت عكازًا تستند عليه أمها مع تقدم العمر وضعف القوة.

***

موسكو، الاثنين 29 أغسطس 2005

اليوم تتم كلارا عامها الثاني والعشرين، وقد أصبحت جميلة يافعة الشباب مفعمة بالحيوية والنشاط، لها من اسمها أوفى نصيب؛ فهي كلارا الصافية الذكية اللامعة. لها طموحاتها وأحلامها المختلفة عن جيل والديها. نمت وتشكلت في ظروف مركبة؛ بين تيار شيوعي يفقد هيمنته ويلفظ أنفاسه الأخيرة، وجذور أرثوذكسية محافظة بدأت تستعيد عافيتها وتخرج من الخفاء للعلن، وعولمة وانفتاح ثقافي غير مسبوق. أتمت كلارا دراستها العام السابق في كلية التربية البدنية، وأعدت دبلومة متخصصة في رياضة الجودو. تُمضي الساعات الطوال على الإنترنت، تتعرف إلى الشباب والفتيات من الشرق والغرب عبر مواقع التواصل والمنتديات، تطلع على خبايا العالم بلا حدود أو قيود، لها حياتها الخاصة وأسرارها، يدفعها الفضول أحيانًا للاطلاع ما قد يعرضها للخطر أو يخدش لها الحياء. تخاف أمها عليها خوفًا مبالغًا فيه، حتى إن العلاقة بينهما شابتها بعض الشوائب وتَكَدَّر صفْوُها القديم. تتصاعد وتيرة الحدة والغضب والشجار والكلام بما لا يليق، صراع أجيال حاد ومحتدم في بيئة اختلطت فيها الأفكار بشكل عجيب تُفرد له أبحاث علوم السياسة والاجتماع وتُعقد له المحاضرات وتُخط فيه الكتب.

تسعى مارجاريتا للمحافظة على العقد الذي رأت أنه على وشك الانفراط في مجتمع مادي منحل لا يرحم إلا القوي. لم تجد بعد من تستأمنه على ابنتها كزوج، وطالما وقفت أمام رغبتها في مصادقة أحد شباب الجامعة الذي رأت في سلوكه الرعونة والمجون والرغبة في التسلية لا أكثر.

قررت هذا العام أخذ خطوة مختلفة لرأب الصدع واستعادة صداقتها واحتوائها لكلارا؛ فبعد مشاجرة كبيرة بسبب صورة شبه عارية أرسلها هذا الشاب على الإيميل انتبهت لها مارجاريتا وقت دخولها على كلارا فجأة، أتبعها خصام وهجر دام خمسة أيام رغم اعتذار كلارا لها يوميًّا وتوضيح أنها فوجئت بالصورة تمامًا كما فوجئت بها أمها. قررت مارجاريتا في النهاية أن تلين إلى ابنتها وأن تفاجئها هذا العام في يوم ميلادها مفاجأة مختلفة.

تركت لها على سريرها ظرفًا مبهجًا بألوان وعبارات حب، لتفتحه وتجد بداخله تذكرتَي طيران وحجزًا بأحد فنادق شرم الشيخ، المدينة المصرية الساحرة.

طارت كلارا فرحًا بالهدية ودخلت على أمها توقظها من نومها وترتمي في حضنها وتغمرها بالقبلات، وتكرر الاعتذار وتجدد العهد معها. سعدت مارجاريتا لذلك وشعرت بأنها خطوة ناجحة على الطريق.

لم يكن يتبقى من الوقت سوى ثلاثة أيام، ولم يحتَجِ الأمر إلى كثير إعداد للحقائب والأمتعة، فكانت الرحلة سهلة، برعاية إحدى شركات السياحة التي أعدت برنامجًا سياحيًّا ترفيهيًّا لمدة 10 أيام لمدينتي شرم الشيخ ودهب.

***

جنوب سيناء، شرم الشيخ، الخميس 8 سبتمبر 2005

كان منتجعًا سياحيًّا كبيرًا في خليج نعمة الخلاب، عند ملتقى القارة الإفريقية والآسيوية. يمضيان فيه الصباح الباكر على المسبح، وبعد انكسار الشمس على شاطئ البحر ورماله الذهبية الدافئة، مع ممارسة الرياضات المائية والرحلات البحرية بين الشعاب المرجانية النادرة، أو الرحلات الصحراوية والجلسات البدوية بين شعاب الجبال.

في هذا اليوم توجهت كلارا إلى أحد العاملين بالشاطئ لتستعلم منه عن الرحلة البحرية التي ينظمها المنتجع، فأرشدها إلى مكتب الحجز، فتوجهت إليه وحجزت مقعدين لها ولأمها في رحلة المركب الزجاجي التي ستنطلق في الثالثة والنصف عصرًا، ثم عادت للاستجمام على الشيزلونج بجوار والدتها الغارقة في النوم.

كانت كلارا تدفع الملل بالاستماع إلى قائمة أغانيها المفضلة على جهاز الـ MP3 Player الخاص بها، تأملت المكان حولها فلمحت على مرمى البصر مجموعة تلعب الكرة الطائرة، فذهبت لتستأذنهم في المشاركة فرحبوا بها وضموها إلى أحد الفريقين، واقترحوا على أحد الجالسين الانضمام إلى الفريق الآخر ليستوي العدد. كانت كلارا تجيد اللعبة وتتحرك برشاقة في إطار الملعب وتسدد رميها باحتراف.

كانـت المبـاراة تسـير بشـكل طبيعـي حتـى اللحظـة التـي تصـادف فيهـا اشـتراك كلارا في صـد الكـرة مـع لاعـب آخـر مـن نفـس الفريـق، والـذي بغـير قصـد منـه دفعهـا بذراعـه مـن جهـة الصـدر، فـكأن عقربًـا سـامَّةً لدغتهـا، وتلقائيًّـا صفعتـه عـلى وجهـه ثـم طرحتـه أرضًـا وسـبَّته بصـوت غليـظ بـكلام لم يفهـم معنـاه، وسـط ذهـول وصمـت مـن الجميـع.

تلعثم تميم من هول الصدمة وظل يردد بالإنجليزية:

- أنـا لم أقصـد، أنـا لم أقصـد، أنـا آسـف، أنـا آسـف، أقسـم باللـه أنـا لم أقصـد!

كانـت كلارا قـد احتقـن وجههـا واحمـر كقطعـة الجمـر الملتهبـة وظلـت تتلفـظ بـكلام غـير مفهـوم. تدخَّـل أحـد العاملـين بالشـاطئ يعمـل في حجـز معـدات الغـوص، كان يتابـع الموقـف منـذ بدايتـه ويجيـد التحـدث بالروسـية، فـأتى مسرعًـا لاحتـواء وتهدئـة الموقـف، فاعتـذر كثـيرًا لـكلارا وقـال لهـا بـأدب بـأن الشـاب لم يتعمـد مـا بـدر منـه بالفعـل، وأن الالتحـام عـلى الكـرة كان السـبب في ذلـك. لم تجـد كلارا مـا تجيـب بـه عـلى الرجـل المهـذب، فـأدارت لـه ظهرهـا وعـادت إلى المظلـة التـي كانـت تنـام مارجاريتـا تحتهـا وجلسـت وضمـت جسـدها وهـي ترتعـش.

استيقظت أمها وذُعرت لرؤيتها على هذا الحال:

- ماذا بك يا كلارا؟

- وقح دفع صدري بذراعه وأنا ألعب الكرة الطائرة!

- أين هو هذا المجرم! وأين أمن المكان؟

- انتهـى الأمـر يـا أمـي، لا عليـك، اعتـذر مـرارًا وقـال إنـه لم يقصد، بـل كاد يبكي مـن الخجـل، وأنـا أظنـه صادقًا رغـم أني صفعتـه على وجهـه وطرحتـه أرضًا.

- وماذا كان رد فعله؟!

- لم يفعل شيئًا! تسمر مكانه وكرر الاعتذار.

- مسكين، يبدو أن الجودو بدأ يؤتي ثماره.

- هههههههه قد أكون بالغت أو أسأت التصرف، لكن للأسف كلما تعرضت لموقف يذكرني بمدرب الجمباز السافل يصيبني الهلع وأتعامل بعدوانية شديدة بغير تمييز.

- وماذا ستفعلين عندما تتزوجين هههههههه؟

- لا أدري يا أمي، لكن لا أظن الأمر سيكون كذلك! المهم، كم هي الساعة الآن؟ لقد حجزت رحلة بالمركب الزجاجي في الثالثة والنصف. هل اقترب الوقت؟ أم لا زال يسمح لنا بطلب بعض المثلجات؟

- أظن لا يزال لدينا بعض الوقت، فالساعة الآن الثالثة إلا عشر دقائق.

- إذن لِنَرَ في هذه القائمة ماذا يمكن طلبه، أكاد أُصهَر من حرارة الجو!

***

عاد تميم إلى مظلته في الناحية الأخرى من الشاطئ منكسًا رأسه، كان صديقاه في استقباله غارقَينِ في الضحك، فغضب منهما كثيراً:

- علام تضحكان؟!

- صراحة يا تميم الصفعة كانت هوليوودية هههههههه.

- أهكذا يا ماجد تفرح في؟ لقد أحرجت بشدة وأتمنى لو تنشق الأرض وتبلعني ولا ينظر إليَّ الناس هكذا!

- أنا على أتم استعداد أن آخذ عنك الصفعة في سبيل دفعة مشابهة أدفعها بذراعي.

- حيوان! لن تتأدب أبدًا. سأصعد إلى الغرفة لأنام، رجاء عندما تعودان ادخلا في هدوء واتركا الأضواء خافتة كما هي ولا داعي للشجارات اليومية حول من يستخدم الحمام أولًا، لا يوقظني أحد قبل موعد العَشاء في المطعم، ولا تمتد يد أحد إلى قطعة الشوكولاتة الخاصة بي في الثلاجة.

***

تميم وسليمان وماجد جمعت بينهم صداقة قديمة تعود إلى أيام المدرسة، وكان الثلاثة هم الأكثر انسجامًا معًا، وكثيرًا ما يتسبب ذلك في بعض الحساسيات مع باقي المجموعة خاصة وقت الرحلات والسفر. تخرج تميم من كلية الحاسبات والمعلومات، وتخرج سليمان من كلية الإعلام قسم الصحافة، وتخرج ماجد من كلية الهندسة القسم المدني. هذا الصيف اتفقوا على السفر إلى شرم الشيخ للمرة الأولى بدلًا من الساحل الشمالي، لما سمعوه كثيرًا من أصدقائهم وأقربائهم عن سحرها وجمالها رغم شدة حرارة جوها. كانت أسعار المنتجع مرتفعة، فتشاركوا في غرفة ثلاثية تطل على المسبح بدلًا من البحر، وفضلوا الذهاب برًا عن طريق الأتوبيس رغم مشقته لتوفير المبلغ الذي كان بحوزتهم وتحقيق أكبر استفادة منه.

في الثامنة من هذه الليلة أيقظ ماجد وسليمان تميمًا لتناول العشاء في بوفيه المطعم المفتوح، ثم نزلا وتركاه؛ لكيلا يؤخرهما. لم يكن الثلاثة مستمتعِينَ كثيرًا بما يقدمه المطعم من أصناف، لكن في المقابل المطاعم في خليج نعمة كانت أيضًا تُبالغ في أسعارها، ولذلك فبوفيه المطعم كان أفضل الاختيارات.

قفز تميم في ملابسه مسرعًا بعد ربع الساعة خوفًا من أن يلحق ببقايا البوفيه كما حدث ليلة أمس. دخل إلى المطعم، وأخذ نفسًا عميقًا:

- يبدو أن الطعام اليوم شهيٌّ.

كانت خريطة المطعم قد انطبعت في ذاكرته منذ اليوم الأول، فلم يضيع وقتًا؛ جذب طبقًا كبيرًا من المنضدة جهة اليمين، ثم توجه مباشرة إلى قسم المأكولات الرئيسية، رمقه بنظره من أوله لآخره، فأخذ قطعتين من اللحم بصوص الفلفل الأسود، وقطعة من صدور الدجاج بالصوص الأبيض والمشروم، وملعقتين كبيرتين من الأرز الأبيض، ثم انتقل إلى ركن السلطات ليزاحم اللحوم ببعض الخضروات المسلوقة، وقدرًا من سلطة البطاطس وسلطة الكرنب بالمايونيز، وبعض شرائح الخيار وحبات الزيتون الأسود. ثم أخذ قطعة خبز قد يحتاج إليها بعد حين.

بحث عن صديقيه فلم يجدهما بداخل القاعة، لكن وجدهما بالخارج يتناولان العشاء على طاولة بالمسبح الملاصق للقاعة، وقد بدأ على ضفته الحفل اليومي الصاخب السخيف.

- لماذا تجلسان في هذا المكان المعتم الصاخب؟

- لا ندري، قلنا من باب التغيير، لكن معك حق الحفل سخيف حقًّا، ورطوبة الجو مرتفعة جدًّا، كان اختيارًا غير موفق، لنكمل الطعام ثم ندخل لتناول الشاي مع الحلوى في الداخل.

انتهى الثلاثة من الطعام ولكن فضَّل ماجد التحلية بالراقصة اللولبية التي رجَّت المكان بهزَّاتها وحركاتها الأفعوانية على نغمات بعض الأغاني الشعبية، في حين انشغل سليمان بتسليك أسنانه بالخلَّة غير مبالٍ بالرقص والنغمات الشرقية التي لا تستهويه. دخل تميم إلى المطعم لإمداد الجزء المتبقي من معدته باللازم، فهذه رغم نحافته كانت متعته الحقيقية.

أخذ هذه المرة طبقًا صغيرًا من المنضدة في الجهة المقابلة، وتوجه

إلى ركـن الحلـوى، لم تكـن بنفـس القـدر مـن الجاذبيـة هـذه الليلـة، التقـط بعـض المخبـوزات ليتناولها مـع الشـاي. ثـم بـدا لـه أن يبـدأ بقـدر مـن سـلطة الفاكهـة التـي أغرتـه بألوانها وشرابها الحلـو، فأخـذ طبقًـا عميقًـا وغـرف منها غرفتـين.

هـوَت الملعقـة الصغـيرة مـن طبقـه، فبهـدوء أخـذ خطـوة إلى الخلـف ليتلقطهـا مـن الأرض، فوجـد مؤخرتـه تصطـدم بأحـد مـن خلفـه، فنصـب قامتـه والتفـت سريعًـا فوجدهـا فتـاة نحيلـة تقـف بظهرهـا تأخـذ بعـض ثمرات الفاكهـة مـن المنضـدة المقابلـة. فلـما اسـتدارت وتلاقـت أنظارهـما انتفـض تميـم وشـحب وجهـه، كأنـه رأى عفريتًـا، لكنـه في الحقيقـة رأى كلارا.

تلقائيًّـا رفـع ذراعـه إلى وجهـه ليحتمـي مـن الصفعـة المرتقبـة، خاصـة وأنـه قـد لمـح الحـدة والغضـب في عينيهـا. قبضـت كلارا يدهـا وهمَّـت بالتسـديد مرة أخـرى عندمـا وجدتـه الشـخص نفسـه، لكنهـا سرعـان مـا عـادت إلى رشـدها هـذه المـرة وأشـفقت عليـه عندمـا رأتـه خائفًـا هكـذا، فأخـذت شـهيقًا عميقًـا وأتبعتـه بزفـير في محاولـة لتنفيـس غضبهـا، ثـم أرخـت قبضتهـا وأشـاحت لـه بيدهـا ثـم اسـتدارت، ليلتقـط هـو أنفاسـه ويحمـد اللـه عـلى السـلامة.

اسـتجمع تميـم شـجاعته لأن يكـرر الاعتـذار إليهـا عـما بـدر منـه في الصبـاح وفي هـذه اللحظـة بغـير قصـد منـه في كلا الموقفـين، فسـكتت كلارا قليـلًا ثـم أجابتـه بالإنجليزيـة بأنهـا أيضًـا تعتـذر عـن تصرفهـا العنيـف الـذي صـدر منهـا لظنهـا أنـه كان يقصـد التحـرش بهـا. فشـكرها لذلـك، ثـم افترقـا.

وضـع تميـم الطبقـين ومفتـاح الغرفـة عـلى طاولـة خاليـة في داخـل المطعـم المزدحـم، ثـم خـرج إلى صاحبيـه ليخبرهـما بأنـه ينتظـر في الداخـل، ثـم عـاد ليُعِـدَّ فنجـان شـاي، وجلـس يفكـر وقلبـه يخفـق اضطرابًـا لمـا حـدث.

عـاد سـليمان وماجـد أحدهـما بالنسـكافيه والآخـر بالشـاي مـع بعـض المخبـوزات، فظلـوا يتسـامرون حتـى اسـتأذنهم النـادل عـلى اسـتحياء في المغـادرة لانتهـاء وقـت العشـاء بالمطعـم، فقـال لهـما تميـم:

- هيا قوما يا عديمَيِ الإحساس، فلم يعد هناك غيرنا بالمكان.

***

في عـصر اليـوم التـالي كان تميـم وصديقـاه عـلى موعـد مـع رحلـة جبليـة بسـيارات الشـاطئ. كانـت الحافلـة الصغـيرة في انتظارهـم أمـام بوابـة المنتجـع برفقـة بعـض نـزلاء المنتجعـات الأخـرى. لما صعـدوا إلى السـيارة فوجئـوا بـكلارا تجلـس إلى جـوار والدتهـا في الكـرسي خلـف السـائق، ولم يتبـقَّ إلا مـكان ثالـث بجوارهـما مـن ناحيـة البـاب، ومكانـان خلفهـما قـد قفـز إليهـما ماجـد وسـليمان، تـاركان تميـمًا يواجـه مصـيره المحتـوم في الكـرسي الأمامـي، فنظـر إليهـما ولم يعلـق، وازداد غضبـه عندمـا وجدهـما يكتـمان الضحـك.

جلس تميم وقال لكلارا وأمها بالإنجليزية بصوت مرتعد:

- مساء الخير، عذرًا فلم أجد مكانًا آخَرَ لأجلس فيه.

ضحكـت مارجاريتـا وأشـفقت عليـه مـن العقـدة التـي سـببتها لـه كلارا، وأجابتـه بالإنجليزيـة:

- بالطبع، لا توجد أي مشكلة، لا تقلق.

ضحكـت كلارا مـن جـواب أمهـا، فضحـك تميـم كذلـك، وشـعر وكأن جبلَ جليـدٍ ضخـمًا قـد ذاب في شـمس الصحـراء الحارقـة. فسـكن تميـم وتصبـب عرقًـا، ثـم بادرهـما بسـؤال:

- من أين أنتما؟

فأجابته كلارا:

- روسيا.

- جميل، هل هي الزيارة الأولى إلى شرم الشيخ؟

- بل هي الأولى إلى مصر.

- مرحبًا، وكيف وجدتماها؟

- هي بحق جميلة، وطبيعتها ساحرة برًّا وبحرًا، نستمتع بوقتنا كثيراً كل صباح.

- وبالمساء ماذا تفعلان؟

- لا شيء، نتناول العشاء في المطعم وأحيانًا نذهب إلى السوق لشراء بعض الأغراض والهدايا التذكارية، ثم نذهب إلى الغرفة لننام حتى الصباح.

- تنامان حتى الصباح! ولماذا فالليل والسهر لهما أيضًا متعتهما في شرم الشيخ.

- أنا وأمي نعتاد على النوم والاستيقاظ مبكرًا، وخاصة مع إمضاء اليوم في السباحة والألعاب البحرية في هذا الجو شديد الحرارة، نُصاب بالإجهاد الشديد ولا نرغب في شيء آخر سوى النوم. غير ذلك، فإننا لا نحب الأجواء الصاخبة والحفلات ولا نحضرها حتى في روسيا.

- نحن أيضًا لا نمضي ليلنا في هذه الحفلات؛ فرجال الحراسة لا يسمحون لنا بالدخول بمفردنا بدعوى منع المعاكسات وإزعاج السائحين، فنمضي وقتنا بالجلوس على المقاهي حتى ساعات الصباح الأولى.

فسمع ماجدًا يغمز سليمان في الخلف ويقول له:

- هذا قِصَرُ ذيل هههههههه.

فـأدار تميـم رأسـه فجـأة ونظـر إليهـما بغضـب شـديد، ثـم صمـت خجـلًا، حتـى سـألته كلارا:

- علام يضحك صديقاك؟

- أبدًا، فهما دائمًا على هذا الحال يحبان الضحك والمزاح.

- لا أراهما بهذا القدر من الفكاهة واللطف.

فضحـك تميـم لذلـك كثـيرًا وهـو ينظـر إليهـما، ثـم أعـاد نظـره إلى كلارا. فوجدهـا تهُـمُّ بوضـع سـماعات مشـغِّل الــ MP3 في أذنيهـا، فسـألها بفضـول:

- ماذا تسمعين؟

- أستمع إلى أغنية لفريق إنجليزي اسمه Pink Floyd.

- حقًّـا؟! رائـع أنـا أعشـق هـذا الفريـق، خصوصًـا حفـل Pulse وأغنيـة Comfortably Numb.

- حقًّا! هذا رائع، أحييك على اختيارك.

- أشكرك. حسنًا لن أزعجك، أتركك وما تسمعين.

خيَّـم الصمـت عـلى جميـع الـركاب حتـى وصلـوا إلى المـكان الـذي سـتنطلق منـه الرحلـة. فنزلوا واسـتقلوا سـيارات الشـاطئ واسـتمعوا جيـدًا إلى التعليمات، ثـم انطلقـوا في سرب صعـودًا إلى الجبـل.

اسـتغرقت الرحلـة سـاعتين ذهابًـا وإيابًـا وسـط الطـرق الجبليـة الوعـرة ومشـهد الغـروب السـاحر، تخللتهـا جلسـة في اسـتراحة بدوية للاسـترخاء وتناول المشروبـات والتقـاط الصـور. اسـتغل تميـم الفرصـة ليشـتري هديتـين تذكاريتـين لـكلارا ومارجاريتـا مـن امـرأة بدويـة بسـيطة تقـف بجـوار الاسـتراحة، بحجـة الاعتـذار عـما بـدر منـه في اليـوم السـابق بغـير قصـد، فشـكراه لذلـك وقبلاهـا منـه بترحـاب.

بعـد العـودة إلى نقطـة الانطـلاق، كانـت الحافلـة في انتظارهـم، فركبـوا جميعًـا وغلبهـم النـوم حتـى وصلـوا إلى المنتجعـات.

***

في صبـاح اليـوم التـالي نـزل تميـم مـع صديقيـه لتنـاول طعـام الإفطـار في المطعـم باكـرًا في التاسـعة والنصـف. كانـت أنفسـهم تتُـوق هـذا الصبـاح إلى إفطـار مـصري أصيـل؛ فتناولـوا الفـول والطعميـة والبيـض والجـبن والسـلطة الخـضراء والمخلـلات، ثـم الفطـير مـع العسـل الأسـود.

وهم يتناولون الطعام مال ماجد على تميم وقال له:

- أين أصحابك؟

فأجابه تميم في ضجر:

- ألا تمل من هذا السخف؟ لا أعلم.

- لكن أقول لك الصراحة، إنهما لطيفتان ومهذبتان.

- نعم؛ هما كذلك، لكن لا شأن لك بهذا.

- انظر يا سليمان كيف يغار صاحبك ههههههههه.

- حقًّا يا أخي سبحان الله! ضرب الحبيب كأكل الزبيب ههههههههه.

- ألا تأكلان في صمت يا أسخف خلق الله؟!

أتـمَّ الثلاثـة الفطـور وقـام سـليمان ليُعِـدَّ فنجـان الشـاي بينـما أشـعل ماجـد سـيجارة. لم ينتظرهـما تميـم وسـبقهما إلى المسـبح؛ كان يأمـل في أن يجـد كلارا فيتجـاذب معهـا أطـراف الحديـث قبـل أن يُطْبِـقَ صديقـاه عـلى أنفاسـه مجـددًا.

كان البهـو مزدحـمًا بفـوج مـن السـائحين الأجانـب والكثـير مـن الحقائـب

والأمتعة، لم يهتم تميم بمروره عليهم هل هو فوج جديد أم مغادر، حتى وجد عند الباب الموصل إلى المسبح كلارا تجلس بجوار أمها على أريكة ويبدو عليهما الاستعداد للمغادرة. فارتبك، ولم يتردد في التوجه إليهما بالسؤال قاصدًا كلارا، وقد بدا عليه التأثر الكبير:

- هل ستغادران اليوم؟

- نعم؛ انتهت رحلتنا سريعًا للأسف.

- صحيح، للأسف الشديد! أتمنى أن تكونا قد أمضيتما وقتًا طيبًا.

- نعم؛ قد استمتعنا كثيراً، بلدكم جميل جدًّا وشعبكم ودود، رغم استغلال بعض التجار والسائقين الجشعين.

- نعم؛ معك حق في ذلك، لكن لا يمنعكما هذا من تكرار الزيارة.

- بالتأكيد.

- حقًّا؟ هل أعتبر ذلك وعدًا؟

ابتسمت كلارا والتفتت إلى والدتها التي أجابت:

- لا أجد مانعًا من ذلك، فقد استمتعنا كثيراً.

سُرَّ تميم كثيراً لسماع ذلك، فاستجمع قوته وسأل كلارا:

- هذا رائع! هل أطمع إذن في أن نتواصل بعد العودة بسلام عبر الإيميل أو الماسنجر حتى أسعد بلقائكما مرة أخرى العام القادم؟

ثم تظاهر بإخفاء وجهه سريعًا بظاهر كفه كأنه يخشى تلقِّي صفعة جديدة، فضحكتا كثيراً لهذا الفعل. لم يكرر تميم السؤال وانتظر رد كلارا التي صمتت ولم تدري ماذا تقول، لكنها نظرت في المقابل إلى أمها التي أجابت:

- لا مانع عندي، أنت شاب مهذب وأنا أطمئن لك.

- لا أدري كيف أشكرك يا مارجاريتا، لقد سررت كثيراً لذلك.

على الفور انطلق تميم إلى موظف الاستقبال وطلب منه ورقة وقلمًا على أن يعيده إليه في الحال، ثم عاد إلى كلارا وقسم الورقة إلى نصفين، وكتب على النصف الأول بريده الإلكتروني على موقع هوتميل وسلّمه لكلارا، وكتبت هي عنوان بريدها على نفس الموقع في النصف الآخر من الورقة وسلّمتها له، فوضعها في جيب المايوه وودعهما وداعًا أخيراً ثم انصرف مغتمًّا نحو المسبح.

كانت المياه الفيروزية الرائقة تنادي تميمًا بالإقبال عليها وعدم التفكير في أي شيء آخر، فخلع التيشيرت ووضعه على شيزلونج، وانطلق نحو المسبح وهمَّ بالقفز فيه. وما أن وصل إلى الحافة وأخذ وضع القفز حتى تذكر الورقة التي في جيبه، ولأنه لم يتمكن من كبح الجماح والتوقف، اختل توازنه وقفز في الماء بحركة بهلوانية عجيبة تمكن بها من إخراج الورقة من جيبه ورفع ذراعه لأعلى لكي لا ينزل بالورقة في الماء فتبتل. وتمكن بنسبة كبيرة من ذلك، إلا أنه أصيب في المقابل بضربة شديدة من الماء في جنبه كضربة السوط، لكن لا بأس فهذا أخف الضررين.

خرج بعدها من الماء يخفي تألمه عن أعين الجالسين. الآن يريد أن يحتفظ بالورقة في مكان آمن؛ كي لا تضيع، فلم يجد إلا أن يصعد إلى الغرفة ليضعها في حافظته. فجفف نفسه سريعًا بالمنشفة الدافئة من حرارة الشمس، ثم ارتدى التيشيرت وتوجه نحو الغرفة من نفس الطريق. نظر إلى الأريكة في البهو فلم يجد كلارا ولا مارجاريتا، فاغتم، ووجد صديقيه يُقبِلان عليه فاغتم لذلك أكثر؛ فلم تكن لديه رغبة في أن يخبرهما بما

حـدث أو يطلعهـما عـلى شيء، فهـو يتحفـظ عـلى مـزاح ماجـد ولسـانه، ويغـار مـن خيالاتـه المريضـة وتفكـيره. سـألاه:

- خيراً؟ إلى أين أنت ذاهب؟

- أبدًا، سأصعد سريعًا إلى الغرفة لأدخل الحمام!

- كان من باب أولى أن تدفئ ماء المسبح هههههههههه، حسنًا، لا تتأخر.

❋❋❋

القاهرة، الأربعاء 14 سبتمبر 2005

انتهت الإجازة سريعًا كعادة كل شيء جميل. بعد ثلاثة أيام من رحيل كلارا، عاد تميم إلى القاهرة وصخبها وزحامها، وإلى العمل وضغوطه ومشاكله.

فور وصوله إلى بيته وقت المغرب، وسلامه على والديه اللذين افتقدهما كثيراً، دخل الحمام وغيَّر ثيابه ثم جلس ليتحدث مع والديه حتى فرغ من تناول الطعام، ثم دخل إلى غرفته وفتح جهاز اللابتوب وجلس به على سريره، وأخرج من حافظته الورقة المكتوب فيها إيميل كلارا ليبحث عنه على الماسنجر. كتب الإيميل مدققًا في كل حرف، ثم أعطى أمرًا بالبحث وهو قلق من أن تكون قد كتبت له إيميل خطأً فيفقدها للأبد. فما هي إلا لحظات حتى ظهر له حسابها في نتيجة البحث، يا للفرح!

لم يجد لها صورة شخصية ليتحقق منها، أو لأنه يشتاق إليها بعبارة أدق، فأرسل إليها طلب إضافة على الفور، ثم فتح بريده الإلكتروني ليرسل لها رسالة، فكتب:

«كيف حالك كلارا؟ وكيف حال مارجاريتا؟ أتمنى أن تكونا بخير ووصلتما بالسلامة وأن يكون كل شيء على ما يرام، أرسلت لك طلب إضافة على الماسنجر أرجو قبوله، أتمنى أن نتواصل قريبًا، تحياتي».

منَّى نفسه أن تكون متاحة على الماسنجر في هذا التوقيت فتفتح رسالته وتقبل صداقته، فانتظر بجوار اللابتوب قدر نصف الساعة حتى استسلم للنوم.

***

مضى ما يزيد عن أسبوعين على إرسال تميم رسالته، لم تتمكن فيهما كلارا من الدخول إلى الإنترنت بسبب عطل أصاب شاشة جهاز الكمبيوتر والحاجة إلى شراء شاشة جديدة. لم تستطع مارجاريتا فعل ذلك قبل استلام راتب الشهر الجديد، فالرحلة قد استهلكت مبلغًا كبيرًا من المال المدَّخر.

مع حلول شهر أكتوبر، أهدت مارجاريتا ابنتها شاشة جديدة أحدث وأكبر، وعاد الاتصال بالعالم الخارجي بعد انقطاع، وكأن الماء عاد إلى الصنبور وأعاد الحياة إلى البيت؛ ربَّاه كيف كانت الحياة بغير إنترنت!

أول ما دخلت عليه بعد توصيل الشاشة في المساء، بعد عودتها من التمرين وأخذِ قسطٍ من الراحة، هو الإيميل؛ فمن المؤكد أنها ستجد كثيرًا من الرسائل.

بالفعل وجدت سبع رسائل:

- لا بد أن الأصدقاء افتقدوني كثيرًا وأرسلوا للاطمئنان عليَّ.

لكن سرعان ما تبدد هذا الشعور الرقيق بمجرد الدخول على الإنبوكس؛ إذ تفاجأت كلارا بأن خمس رسائل من السبعة هي رسائل تنبيه من إدارة الموقع تفيد بأن رسائل قديمة لم تصل إلى المرسلة إليهم، يا للإحباط!

كانت الرسالة السادسة مرسلة من صديقها أندري غير المرغوب فيه، والذي أرسل للاطمئنان عليها ولمعرفة سبب اختفائها منذ آخر رسالة بينهما، مدعيًا أن صورته شبه العارية قد أرسلها بالخطأ! فلم تجبه كلارا.

الرسالة السابعة كانت تلك التي أرسلها تميم.

اختلطـت مشـاعرها بخصـوص الرسـالة، فلـم تسـتطع تحديـد هـل هـي مـسرورة أم غـير مكترثـة، لكـن في كلتـا الحالتـين هـي لفتـة طيبـة منـه، ولـن يـضر في شيء قبـول الطلـب وبعـض الدردشـة.

فتحـت الماسـنجر لتجـد طلـب تميـم في انتظارهـا، ضغطـت زر القبـول، فوجـدت تميـمًا متاحًـا في حينهـا:

- يا إلهي! أتمنى ألا يكون ثرثارًا؛ فأنا لا أطيق الدردشة الآن!

كتب لها تميم على الفور بالإنجليزية:

- يـااااه أخـيرًا! أنـا في غايـة السـعادة بالتواصـل معـك مجـددًا كلارا، كنـت فقـدت الأمـل في ذلـك!

فاضطرت للإجابة لاعتيادها الظهور تلقائيًّا Online:

- أهـلا تميـم، شـكرًا لـك، فقـط كان لـديَّ عطـل بالكمبيوتـر تـم إصلاحـه اليـوم.

- الحمد لله، وكيف حالك؟ هل كل شيء على ما يرام؟

- نعم؛ أنا بخير، ولكني متعبة قليلًا.

- يا إلهي! خيراً ماذا بك؟

- أبـدًا أبـدًا لا شيء، فقـط عـدت مـن التمريـن مجهـدة، والوقـت الآن متأخـر، السـاعة تقـترب مـن العـاشرة والنصـف ولا زلـت مسـتيقظة.

- صحيـح، فالوقـت الآن عنـدي في القاهـرة التاسـعة والنصـف مسـاء، وأنـا كذلـك لم أعـد مـن العمـل إلا منـذ سـاعة وأحتـاج إلى الراحـة، حسـنًا لا توجـد مشـكلة، المهـم أنـك بخـير.

- نعم؛ أنا بخير.

- الحمد لله، إذن نتكلم في وقت لاحق، إن لم يكن عندك ما يمنع، وشكرًا جزيلًا للإضافة.

- أكيد.

- تصبحين على خير.

- وأنت كذلك، أشكرك.

***

أطاحت السعادة برغبة تميم الشديدة في النوم بعد يوم عمل شاق وطويل؛ فمنذ تخرجه من الكلية وهو يعمل مبرمجًا في إحدى شركات البرمجة، الأمر الذي يتطلب جهدًا ذهنيًّا كبيرًا، إضافة إلى مساعدته لوالده في إدارة أعماله كتاجر أجهزة كهربائية منزلية له معرض كبير بمصر الجديدة.

على الرغم من إنهاكه والصداع الذي تمكن من رأسه ظل تميم جالسًا باللابتوب على سريره يقرأ المحادثة مرة تلو الأخرى ويسأل نفسه:

- هل هي رحبت بي أم أني أثقلت عليها؟ يبدو لي من ردودها المقتضبة أنها لم ترحب. لا أعلم؛ لعلها مجهدة كما تقول وأنا فاجأتها بالرسالة في موعد غير مناسب، أتمنى ألا تكون هي المحادثة الأخيرة. لا أدري لماذا تشغل كلارا تفكيري بهذا القدر؟ هل لأنها مجرد فتاة أجنبية جميلة؟ أم لأن قلبي تعلق بها حقًّا؟ وماذا بعد التعلُّق؟ فيما تفكر يا مجنون؟ يا ربي! أنا بحاجة شديدة إلى الراحة، فاليوم كان طويلاً جدًّا. جسمي يؤلمني كثيراً، لكن ذهني لا يتوقف عن التفكير، هل آخذ من أقراص والدتي المهدئة؟!

وضـع تميـم اللابتـوب بجـواره وأظلـم الغرفـة تمامًـا محـاولًا النـوم، وبعـد محـاولات اسـتمرت سـاعة انتهـى الأمـر باستسـلام ذهنـه لآلام جسـده وطلبـه للراحـة. لكـن هيهـات؛ فقـد اقتحـم أخـوه كريـم الغرفـة وأضـاء الأنـوار، فقـال لـه تميـم في انزعـاج شـديد، مخفيًـا عينيـه بيـده:

- قلـت لـك مـرارًا لا تدخـل عـليَّ بهـذه الطريقـة؟ وأن لا تـضيء الغرفـة هكـذا وأنـا نائـم!

- وكيف أدخل إذن والغرفة كالحة السواد؟!

- ليـس هـذا شـأني، أضِـئِ الغرفـة المجـاورة، اسـتخدم كشـاف هاتفـك المحمـول، أي شيء، تـصرف!

- المرة القادمة بإذن الله.

- مستفز!

- شكرًا.

- أين كنت؟

- في درس الكيمياء.

- وكيف الحال؟

- لا توجد كيمياء للأسف.

- لا أفهمك.

- فتاة تحضر معنا الدرس لا تبادلني الاهتمام إطلاقًا.

- وأنـا الـذي ظننتـك مقبـلًا عـلى الثانويـة العامـة بجـد واهتـمام، يـا أخـي لا تنشـغل بهـذه الأمـور الفاشـلة التـي ليـس وراءهـا طائـل سـوى المشـاكل والاكتئـاب، وأولى لـك أن تـصرف نظـرك عـن هـذه التفاهـة، وإلا أخـبرت والـدك

الذي يدبر لك هذه المصاريف. هيا لتنظر ماذا أنت فاعل الآن سريعًا ثم أطفئ النور وأغلق الباب ولا توقظني مجددًا.

ثم أدار ظهره لكريم وقال في نفسه: نِعم النصيحة هي لو أنا عملت بها !

***

تمُر أيام أكتوبر الخريفية وتبدأ المحادثات تتوالى بين تميم وكلارا بشكل مقتضب من جانبها. يلاحظ تميم أحيانًا كثيرة تظاهر كلارا بالانشغال عنه، والاعتذار بشكل مفاجئ لإنهاء المحادثة لأي علَّة. وأحيانًا أخرى تطول لتشغل الساعات في أمور تافهة ومملة، يستأنس تميم بوجودها رغم سآمتها لمجرد التغلب على الاكتئاب الموسمي الذي يعاني منه في هذا التوقيت من كل عام. يحاول اكتشاف شخصيتها وطباعها، فلا يستطيع التحديد هل هي تستثقله ولا تود إحراجه، أم أنها متقلبة المزاج، أم أن لديها بالفعل ما يشغلها... كثيراً ما يلوم نفسه بعد هذه المحادثات التي لا طائل من ورائها سوى ضياع الوقت وتعلق القلب بأمر مجهول، على عكس ما غرست فيه والدته وكانت تديم له النصيحة أيام المراهقة بالتحدث مع الفتيات في الأمر الضروري وفقط، حينما كان يقضي الليل كله على برامج الشات؛ الـ mIRC والـ ICQ، وتستيقظ بين الحين والآخر على صوت صفير الـ مودم Modem المزعج لتجده يدردش مع البنات. يتذكر حينما رفعت سماعة الهاتف في يوم ما من الطرف الآخر فوجدته يواعد إحداهن باللقاء، فتشاجرت معه. ودائمًا كانت تردد عليه القول: «لو كان لك أخت لم تكن لتسمح لها بهذا»... رغم هذه الذكريات الأليمة لم يستطع منع نفسه عن التواصل مع كلارا؛ فقد شغلت قلبه وحيزًا كبيراً

مـن تفكـيره، وبـدا لـه أنـه لا يتحـدث إليهـا بنفـس العقليـة المراهقـة القديمـة، وأنـه يتطلـع إلى مـا هـو أبعـد مـن الــ «شـات».

تجرأ ذات يوم فكتب لها:

- أريـد أن أسـألك سـؤالًا منـذ أول يـوم رأيتـك فيـه وحـدث مـا حـدث، لكـن لم تأتنـي الفرصـة.

- كنت قد نويت الانصراف الآن، لكن لا بأس، ما هو السؤال؟

- لمـاذا كانـت ردة فعلـك بهـذه القسـوة والانفعاليـة تجـاه مـا بـدر منـي في مبـاراة الكـرة الطائـرة؟

- أنـا بطبعـي عصبيـة لدرجـة كبـيرة ومتهـورة، وحينـما يتعلـق الأمـر بموقف مشـابه لمـا حـدث يُجَـنُّ جنـوني. السـبب في ذلـك هـو عقـدة تسـبب لي فيهـا حـادث تحـرش تعرضـت لـه وأنـا طفلـة صغـيرة... ثـم قصـت لـه مـا حـدث مـن مـدرب الجمبـاز.

- مممـم، أنـا آسـف جـدًّا لهـذا، ولكـن هـل هـذا الموقـف أثـر عـلى حياتك لدرجـة أنـك ترفضـين الـزواج مثـلًا؟ هـل لم يسـبق لـك الارتبـاط أو الدخـول في علاقة ؟

- هــذا ســؤال جــريء أســتغرب أن يصــدر منــك، ولكــن عــلى كل حــال ســأجيبك: بالطبـع لا أرفـض الـزواج، فالأمـر لم يصـل معـي لهـذا الحـد، ولم يســبق لي الدخــول في علاقــة؛ فأمــي محافظــة ومتدينــة وتخــاف عــليَّ جــدًّا، ولعلـك لاحظـت في شرم الشـيخ أنهـا لا تفارقنـي لحظـة، حتـى أنـدري زميـلي في الدراســة الــذي بادلنــي الإعجــاب، أمــي لم تعجــب بســلوكه ومنعتنــي مــن مصادقتـه وحذرتنـي منـه، وكان ذلـك سـبب أزمـة كبـيرة بينـي وبينهـا.

- معنى ذلك أن سبب امتناعك فقط هو والدتك؟

- كان هـذا في بـادئ الأمـر، لكـن لا أخفـي عليـك أني اقتنعـت بوجهـة نظرهـا، خصوصًـا بعدمـا علمـت مؤخـرًا بارتبـاط أنـدري بزميلـة أخـرى وإقامتـه علاقـة معهـا في غضـون أيـام، بـل في نفـس الوقـت الـذي كان يراسـلني فيـه. فتيقنـت أن هـذه العلاقـات لا تحركهـا إلا الشـهوة، والـزواج أرقـى مـن ذلـك.

- هذا الكلام مبهر وراقٍ جدًّا، وعذرًا، غريب على مجتمعكم.

- قد يكون، أشكرك. هل لي الآن أن أنصرف.

- بالتأكيد كلارا، أراك لاحقًا.

- أراك لاحقًا تميم.

***

القاهرة، الجمعة 9 ديسمبر 2005

كعادته يوم الإجازة كل جمعة، يستيقظ تميم قبل الصلاة بساعة، فيغتسل ويبكِّر إلى المسجد ليقرأ سورة الكهف، ثم يعود فيشاهد التلفاز حتى يحين موعد الغداء عصرًا، فهذا هو لقاء الأسرة الأسبوعي الذي تجتمع فيه على مائدة الطعام ولا يتخلف عنه أحد. إلا هذا اليوم؛ فقد تخلف والده عن تناول الغداء معهم، فسأل تميم والدته:

- أين أبي؟

- نزل عثمان باكرًا ولم يقل لي شيئًا سوى أنه مشغول اليوم في بعض الأعمال ولن يستطيع اللحاق بنا وقت الغداء. لم أسأله إلى أين سيذهب تحديدًا؛ لأنه منذ ليلة أمس وهو حاد المزاج جدًّا، وأنت تعرف كيف هي طباعه.

- نعم؛ أعرف، والله أنا أخشى دائمًا على صحته من هذه الحدة والعصبية، لكن هذا هو حال أصحاب التجارات دائمًا.

- ربك يصلح الحال.

- آمين يا رب، خسارة أن تفُوتهُ هذه الملوخية الرائعة!

- بالهناء والعافية يا حبيبي.

بعـد أن تناولـوا الطعـام، نـزل كريـم ليلحـق بدروسـه، ودخـل تميـم إلى الحـمام ليغسـل يديـه وأسـنانه، ثـم خـرج إلى المطبـخ ليعـدَّ كوبًـا مـن الشـاي بورقـات النعنـاع الخـضراء الطازجـة التـي اشـتراها مـن أحـد الباعـة الجائلـين بعـد الصـلاة، وجذبـه إليهـا لونهـا الأخـضر الزاهـي ورائحتهـا الذكيـة النفـاذة. فدخـل بالكـوب إلى غرفتـه وجـذب جهـاز اللابتـوب مـن عـلى المكتب ليسـتلقي بـه عـلى سريـره. كان الماسـنجر مضبوطًـا عـلى أن يعمـل تلقائيًّـا فـور تشـغيل الوينـدوز وأن يظهـر حالـة تميـم Away لـكل الأصدقـاء؛ دفعًـا للحـرج مـن كل مـن لا يرغـب في الحديـث معـه، خاصـة هـذه السـاعة التـي يريـد فيهـا الاسـتمتاع بكـوب الشـاي بهـدوء. صـار مؤخـرًا لا يحبـذ ضبـط الحالـة Offline لـكي لا يفـوِّت المحادثـة مـع كلارا، والتـي كانـت في أحيـان كثـيرة تتحـدث إليـه وحالتهـا Offline كذلـك.

كانــت حالــة تميــم المزاجيــة تميــل للاســتماع إلى بعــض كلاســيكيات موسـيقى الـروك، فوضـع السـماعات في أذنيـه واختـار أغنيـة: Jimi Hendrix - Voodoochild - Live at Woodstock 1969

ثـم سـجَّل عـلى الماسـنجر أنـه يسـتمع إليهـا كنـوع مـن التباهـي أمـام الأصدقــاء بذوقــه واختيــاره.

كانـت كلارا تتابـع ذلـك في صمـت متخفيـة وراء حالتها الـ Offline، فدفعها الفضـول لتشـاغب تميم:

- من الذي يستمع إذن وأنت Away؟

فأجابها سريعًا بوجه ضاحك، ثم كتب:

- عنـدك حـق، فاتنـي هـذا الأمـر، كان الأوقـع أن أضبـط الحالـة Busy، لكـن لا بـأس، فالمهـم بالنسـبة لي أن أتحـدث إليـك عـلى أي حـال. كيـف حالـك كلارا؟

- أنا بخير، هل قطعت خلوتك؟

- إطلاقًا! لا تقولي هذا.

- ولماذا تختار نسخة وودستوك من أغنية هندريكس؟ نسخة الاستوديو أفضل كثيراً في رأيي.

- لا يوجد سبب محدد؛ فأنا أحب كثيراً أداء هندريكس في هذه الأغنية، وأستمع لها كثيراً، فمن باب التنويع أطلع على نسخ مختلفة منها، ولكن معك حق في ذلك، فقد استمعت لها الآن وهي ليست الأفضل. يبدو لي أنك متبحرة في عالم الروك. غريب مع أنك روسية!

- وما الغرابة في ذلك؟

- صحيح معك حق، وما الغرابة في ذلك؟ فأنا مصري وأميل إلى الموسيقى الغربية، ودائمًا تنظر إليَّ أمي بامتعاض حينما تجدني أستمع إليها.

- تمامًا مثل ما يحدث لي مع والدتي، إضافة إلى أنها تقول لي عبارتها المشهورة: «هذا ما أخذناه من الإنترنت!».

- هههههههه يبدو أن نمط الأمهات واحد في كل العالم.

- صحيح، لكن المسألة تأخذ مع مارجاريتا حيِّزًا مختلفًا عن مجرد كونه نمطًا للأمهات التقليدية الرافضة لما هو مختلف وجديد.

- كيف ذلك؟

- نعم، فلقد عملت والدتي لفترة طويلة رسامة كاريكاتير في مجلة روسية كبيرة، وكانت دائمة الهجوم على أمريكا والألاعيب الإعلامية والبروباجاندا التي كانت تستخدمها ضد السوفييت وقت الحرب الباردة، ولذلك فهي حتى اليوم تتحامل على كل ما هو أمريكي.

- لكن هذا التحفظ لا أتفق معه على طول الخط.

- نعم؛ وأنا أتفق معك في هذا، ولذا أختلف أحيانًا مع أمي، الانفتاح ليس كله شرًّا؛ ألا تحب ماكدونالدز؟

- مؤكد، فأنا عاشق للبيج ماك.

- وأنا كذلك. أتذكر يوم افتتاح أول فرع لماكدونالدز في موسكو، بل في روسيا كلها عام 1990. كنت أبلغ من العمر وقتها 7 سنوات. الفرع كان ولا يزال في شارع بوشكينسكايا Pushkinskaya المجاور لمنزلنا. في هذا اليوم كان طابور الانتظار طويلًا جدًّا جدًّا بشكل يفوق التصور؛ كان ممتدًا بطول الشارع والشوارع المجاورة، كأنها أفعى ضخمة تلتف حول المطعم تريد التهامه! أذكر يومها أننا وقفنا في هذا الطابور قرابة الساعتين ولم نقترب حتى من المطعم، حتى بكيت بسبب حاجتي الشديدة لدخول الحمام، ولم تستطع أمي حملي ولا الوقوف أكثر من ذلك فقررت الانصراف. لا أنسى ابتسامتها وهي تقول لي: «فعلتها أمريكا». بالطبع لم أفهم مرادها وقتها ولم أهتم بالاستفسار، فقد كنت صغيرة وجائعة جدًّا وأريد دخول الحمام.

- هههههههه ذكرتيني بموقف مشابه وقت افتتاح ماكدونالدز في مصر عام 1994 على ما أذكر، كانا فرعين وحيدين في القاهرة افتُتِحا في نفس التوقيت. كان عمري وقتها 12 سنة. قررت مع أصحابي بعد يوم من افتتاحه أن نذهب لنجربه، ومن شدة الزحام لم نستطع الدخول لثلاثة أيام متتالية؛ في كل يوم كنا نذهب لنقف ما يزيد عن الساعة ولا نستطيع الوصول إلى المدخل، حتى يئسنا وصرفنا نظرًا، ففوجئت بأبي بعدها بأسبوعين يصحبنا إلى ماكدونالدز. كان هذا أول عهدنا بنظام اخدم

نفسـك بنفسـك Help Yourself، وكان ممتعًـا للغايـة، وتعلمنـا منـه مسـؤولية الحفـاظ عـلى المـكان ونظافتـه.

- هذا صحيح.

- بمناسـبة كلامنـا عـن موسـيقى الـروك، فقـد حدثـت بعـد ذلـك بثـلاث سـنوات قضيـة اشـتهرت جـدًّا في مـصر وقتهـا عرفـت باسـم «عبـدة الشـيطان»، اتُّهـم فيهـا مجموعـة مـن الشـباب بسـماعهم لموسـيقى الـروك والبـلاك ميتـال، ويتخـذون مـن قـصر مهجـور شـهير اسـمه قـصر البـارون ملتقـى لهـم، وكانـوا يتجمهـرون كذلـك أمـام هـذا الفـرع لماكدونالـدز، وقـد رأيتهـم هنـاك عـددًا مـن المـرات كانـوا يلبسـون السـواد ويطيـل الذكـور منهـم شـعورهم، ولم أهتـم وقتهـا بمتابعـة التفاصيـل، ولم أكـن بـدأت في الاسـتماع إلى موسـيقى الـروك بعـد.

- موسـيقى البـلاك ميتـال مقـززة حقًّـا ولا أرى فيهـا أي فـن ولا شيء سـوى أنهـا طقـوس شـيطانية غبيـة. لكـن مثـل هـذه التجمعـات معروفـة لـكل المهتمـين بموسـيقى الـروك وتقاليعهـا، وبشـكل عـام هـي متعـارف عليهـا لـكل المهتمـين بفـن أو بنمـط حيـاة معـين، كالمهتمـين مثـلًا بدراجـات هـارلي دافيدسـون Harley Davidson تراهـم يجتمعـون ويسـيرون في أسراب وبهيئـة وأزيـاء جلديـة مميـزة. أتعـرف؟ حفـل وودسـتوك هـذا الـذي تسـمع منـه أغنيـة هندريكـس هـو أضخـم المحافـل الفنيـة والموسـيقية التـي حدثـت حتـى اليـوم؛ كان حفـلًا موسـيقيًّا كبـيرًا عُقـد في مزرعـة في نيويـورك لمـدة ثلاثـة أيـام متواصلـة تحـت عنـوان (ثلاثـة أيـام مـن السـلام والموسـيقى) 3 Days of Peace and Music، وحـضره قرابـة نصـف مليـون شـخص مـن الهيبيـز بطابعهـم البوهيمـي المتميـز.

- الهيبيـز عندنـا يعتـبرون مـادة للتنـدر والسـخرية، وحينـما نَصِـفُ أحـدًا

بأنـه يعيـش مثـل الهيبيـز فنقصـد بهـا أنـه شـخص أشـعث أغـبر هائـم عـلى وجهـه يعيـش عـلى هامـش الحيـاة.

- الهيبيـز حقًّـا يعيشـون في حالـة قريبـة مـن تلـك، وحياتهـم ضائعـة بـين العلاقـات الجنسـية المفتوحـة والمخـدرات، وينقمـون عـلى حكومـات بلادهـم، وينخرطـون في حـركات تعـرف باسـم حـركات السـلام العالمـي تناهـض الحـروب والدمـار والتسـليح النـووي. إلا أن أزياءهـم النسـائية مبهجـة وتعجبنـي، رغـم أن والـدتي تتحفـظ عليهـا، وتشـاجرت معـي في يـوم معـي بسـبب ارتـدائي لثيـاب مشـابهة.

المهـم، انخـرط في هـذه الحركـة عـدد كبـير مـن مؤسـسي موسـيقى الـروك، مثـل جـون لينـون أحـد أعضـاء فريـق البيتلـز. وبعضهـم أيضًـا شـارك في حفـل وودسـتوك كــ كارلـوس سـانتانا، وجيمـي هندريكـس الـذي عـزف فيهـا عـلى جيتـاره السـلام الوطنـي الأمريـكي بـأداء يوحـي بالعنـف والقهـر والاسـتبداد، وتلاعـب بأوتـار الجيتـار ليُحـدث أصـوات الحـروب خـلال عزفـه للسـلام الوطنـي.

- هــذا كلام أول مـرة أعرفـه، لكـن لـو لي أن أسـأل: لم تشـاجرت والدتـك معـك؟ هـل لأن أزياءهـم مثـيرة؟

- هـذا سـبب، والسـبب الآخـر أنهـا تشـككت في أن أكـون قـد بـدأت أتأثـر بهـم وبطريقـة تفكيرهـم وبحياتهـم الماجنـة، أو أني بـدأت أتعاطـى نوعًـا مـن المخـدرات. كان مـما ذكرتـه لي أثنـاء المشـاجرة أن في فـترة الحرب البـاردة وصراع التسـليح النـووي بـين السـوفييت وأمريـكا، كان الــ KGB يدعـم هـذه الحركات في أمريـكا بشـكل خفـي غـير مبـاشر، نظـرًا لانخـراط عـدد كبـير مـن الشـباب الأمريـكي بهـا، الأمـر الـذي مثَّـل قـوة ضغـط مؤثـرة عـلى الحكومـة الأمريكيـة، أدت في النهايـة إلى إنهـاء الحـرب الفييتناميـة.

- عجيب، وهل تعتقدين في هذا؟

- ربما، ولم لا؟

- وهل لا زالت مارجاريتا تعترض على سماعك لهذه الموسيقى.

- بالطبع، لا زلنا نختلف حتى اليوم، إلا أنها لم تعد تنهاني كما كان يحدث في السابق، لكن تكتفي عندما يحتدم الخلاف بيننا أن تردد عليَّ هذه الكلمة: «أعلى فنون الحرب هو عدم القتال على الإطلاق، بل هو تخريب أي شيء ذي قيمة في دولة عدوك». أمي شديدة الانتماء والتمسك بهويتها، وهذا يظهر جليًّا في طبيعة عملها كما ذكرت لك.

- ولكنها تحب ماكدونالدز!

- نعم؛ تحبه كثيراً ههههههههه.

رن هاتف تميم:

- لحظات معي كلارا، أبي يتصل بي.

- أكيد، خذ وقتك.

- ألو يا تميم، كيف حالك يا بني؟ هل تستطيع أن تأتي إلى بيت عمِّك جلال الآن وتحضر الملَف الأخضر الموجود في الدرج الثاني من دولابي؟ أعلم أنه يوم إجازتك، ولكن الأمر مهم، معذرة يا بني. لا تتأخر.

- لا يا أبي، أنت تأمر، مسافة الطريق وسأكون عندك بإذن الله.

عاد تميم إلى كلارا فكتب لها:

- عذرًا كلارا، سأضطر للذهاب الآن، أبي يحتاجني في أمر مهم.

- بالتأكيد، نكمل الحديث في وقت لاحق. آخر شيء قبل الذهاب:

أقـترح عليـك سـماع أغنيتـك المفضلـة لهندريكـس بـأداء جـاري مـور Gary Moore. هيـا، اذهـب.

- جميل، بالتأكيد أفعل، أراك لاحقًا كلارا.

«مدهشة!».

***

نظـر تميـم في السـاعة فوجدهـا تقـترب مـن السادسـة. ارتـدى ملابسـه وأحـضر الملَـف الأخـضر ونـزل ليسـتقل سـيارته، فـإذا بالإطـار الأمامـي الأيمـن للسـيارة هـو والأرض سـواء.

لم يتسـع الوقـت لأن يغـير الإطـار، فوقـف عـلى ناصيـة الشـارع العمومـي ليسـتقل تاكـسي. بينـما هـو ينتظـر وجـد مينيبـاص غـير مزدحـم يقـف في المحطـة ووجهتـه إلى نفـس المـكان، ميـدان روكـسي، فلـم يـتردد في ركوبـه خاصـة وأن اليـوم الجمعـة والشـوارع غـير مزدحمـة.

عنـد اقترابـه مـن الميـدان، ظـن تميـم أنـه لا يـزال بكامـل لياقتـه، فقفـز مـن المينيبـاص الـذي رفـض التوقـف قبـل تقاطـع الإشـارات لكيـلا تفوتـه الإشـارة الخـضراء، فتعـثرت قدمـا تميـم وانكفـأ عـلى وجهـه عـلى الأسـفلت وزحـف عـلى بطنـه باسـطا ذراعيـه للأمـام كالـذي يسـبح في المـاء، ويقبـض الملَـف في يـده. لقـد أفلـت بالـكاد مـن سـيارة تمُـر ببـطء تمكـن سـائقها مـن التوقـف سريعًـا وضغـط إشـارة الانتظـار لتنبيـه مـن خلفـه.

اسـتند تميـم عـلى كفيـه وقفـز سريعًـا إلى الرصيـف، ليجـد الميـدان كلـه تسـمَّر مكانـه ينظـر إليـه، وسـط نفـير سـيارات وصخـب وارتبـاك شـديد، لم يهتـم إلا بالنظـر شـزرًا إلى المينيبـاص الـذي تجـاوز الإشـارة ومـضى في طريقـه ولم يُلْـقِ لـه أي بـال.

أقبـل عليـه بعـض المـارة ليطمئنـوا عليـه فطمأنهـم أنـه بخـير، بعـض السـجحات السـطحية والكدمـات في ذراعيـه جـرَّاء الوقـوع والزحـف عليهـما، وبالطبـع ملابسـه لم تكـن محـل السـؤال!

شـكرهم ومـضى في طريقـه متجهًـا نحـو حديقـة المريلاند. وهو يسير بخطى مسرعـة شرد بذهنـه مسـترجعًا مـا مـرَّ بـه قبـل ثمـاني سـنوات؛ حينـما ذهـب في رحلـة صيفيـة إلى لنـدن برفقـة أسرة أحـد أصدقـاء الطفولـة. وهنـاك اتجاهـات الشـوارع عكـس مـا نألفـه، والمقـود في يمـين السـيارات. لا أحـد كان يسـتطيع مـرور الشـارع إلا بالضغـط عـلى زرار مرفـق بعامـود الإشـارة والانتظـار قليـلًا حتـى تتحـول الإشـارة إلى الأخـضر ويـؤذن لـه بالمـرور. كان تميـم ملتزمًـا بهـذا النظـام إلى أقـصى حـد، بـل وسـعيدًا بـه متمنيًـا تطبيقَـه في بلـده. لكـن في لحظـة سـهو، كتلـك اللحظـة التـي ينـسى فيهـا كلمـة الـسر المعتـاد عليهـا منـذ سـنوات، نظـر عـن شـماله فلـم يجـد أي سـيارة قادمـة، والاتجـاه الآخـر كان خاليًـا تمامًـا، فهَـمَّ بالعبـور بغـير التـزام بالإشـارة، وهـو في منتصـف الطريـق فوجـئ بصـوت نفـير سـيارة يقـترب منـه مسرعًـا، فالتفـت شـمالًا مـرة أخـرى فلـم يجـد شـيئًا، فالتفـت يمينًـا فـإذ بسـيارة جاجـوار تقبـل مسرعـة وعـلى وشـك الاصطـدام بـه، فقفـز قفـزة بهلوانيـة إلى الرصيـف المقابـل، ليجـد جميـع المـارة قـد تسـمَّروا في أماكنهـم ينظـرون إليـه شـزرًا، فـما منـه إلا أنـه قـال في نفسـه: Sorry guys, Egyptian.

***

أخـيرًا وصـل تميـم إلى العنـوان، واسـتقل المصعـد إلى الـدور الخامـس حيـث يسـكن عمَّـه. ضرب الجـرس وفتحـت لـه زوجـة عمِّـه نجـلاء فهالهـا المنظـر:

- ما هذا يا بني، ماذا الذي أصابك؟ أأنت بخير؟! تفضل بالدخول.

- أنا بخير يا طنط الحمد لله، حادث بسيط وأنا أعبر الطريق، ربنا ستر.

- الحمد لله رب العالمين، ربنا يحفظك ويسلمك من كل سوء.

- آمين يا رب، وأنتم كذلك، أستأذنك في دخول الحمام.

- أكيد يا تميم بلا استئذان، تفضل.

- صحيح، أبي عندكم، أليس كذلك؟

- نعم؛ هو بالداخل مع عمِّك.

- تمام، أستأذنك أن تسلمي له هذا الملَف، وأنا سأدخل إليهما بعد الخروج من الحمام.

أوقد تميم نور الحمام وأغلق على نفسه الباب ونظر في المرآة، فضاق صدرًا بما أصابه:

- لم أُصَبْ بمثل هذه الجلطات منذ أيام لعب كرة السلة في النادي، هل أعود مجددًا إلى الميركريكروم ومثل هذه الأشياء!

فتح الصنبور وغسل وجهه ويديه وذراعيه الملتهبتين، ثم قضى حاجته سريعًا وهندم ثيابه المسودة من أثر الأسفلت، ثم جفف يديه بمناديل ورقية وخرج إلى غرفة المعيشة التي وصله تكييفها المنعش من آخر الطرقة. دخل وألقى السلام، فأجابوه:

- وعليك السلام ورحمة الله وبركاته، ما الذي حدث لك يا بني، لم أفهم شيئًا من نجلاء؟!

- أنا بخير يا عمِّي لا تقلق حادث بسيط، كيف حالك يا أبي؟

- الحمد لله على سلامتك يا بني، لماذا لم تأت بسيارتك؟

- وجـدت إطـار السـيارة هـو والأرضُ سـواء، وخفـت أن أتأخـر عليـك فتركتهـا وركبـت المواصـلات؟

- المهم أنك بخير؟ هل تشعر بأي ألم؟

- لا يا أبي، مجرد كدمات وخدوش سطحية الحمد لله.

- الحمـد للـه، حسـنًا، لـو انتظـرت نصـف سـاعة بالضبـط سـنعود معًـا إلى البيـت.

- حسنًا يا أبي سأنتظر.

- عاصم ابن عمك في غرفته يمكنك الدخول إليه.

- حقًّا؟ ظننته بالصيدلية، تمام سأدخل له فأنا أفتقده كثيراً.

سألته نجلاء؟

- مـاذا تـود أن تـشرب يـا تميـم؟ لـديَّ عصـير برتقـال طبيعـي سـيعجبك، أم تريـد شـيئًا دافئًـا.

- لا لا، سأشرب البرتقال.

- من عيناي، سأحضره لك في غرفة عاصم.

***

عاصـم ابـن عـم تميـم والذكـر الوحيـد في أبنـاء عمومتـه، كان دائمًـا هـو الأقـرب إليـه. يطـرق تميـم البـاب عـلى عاصـم اسـتئذانًا في الدخـول، فدخـل فوجـده جالسًـا عـلى سريـره يضـع اللابتـوب عـلى فخذيـه والسـماعات في أذنيـه والغرفـة مظلمـة. ضحـك لـه عاصـم وألقـى باللابتـوب إلى جـواره وقـام ليضيء الغرفـة ويعتنـق تميـمًا بحـرارة:

- يااااه! كيف حالك يا صديقي، افتقدتك كثيراً، لمَ لم تأت مع والدك؟

- وأنـا أيضًـا أفتقـدك يـا عاصـم، لم يكـن في حسـباني أني سـآتي لزيارتكـم اليـوم، لـولا أن أبي اتصـل بي وطلـب منـي المجـيء لأحـضر لـه بعـض الأوراق.

- إذن لا أراك إلا صدفة!

- نفس الكلام أقوله لك إذن! كيف حالك؟ وكيف حال الصيدلية؟

- صراحـة يـا تميـم، الأمـور ليسـت عـلى مـا يـرام، ويبـدو أني سـأصفي هـذا المـشروع مـع نهايـة هـذا العـام.

- كيف ذلك؟! فمعلوم أن الصيدلية تجارة مربحة.

- هـذا مـا يبـدو للنـاس، لكنـه ليـس كذلـك في كثـير مـن الأحـوال؛ يعنـي أنـا مثـلًا مسـتأجر لهـذه الصيدليـة التـي لم تكـن طيبـة السـمعة، وأنـا سـعيت جاهـدًا لأغـير انطبـاع العمـلاء عنهـا سـواء بالخدمـة أو بتوفـير احتياجاتهـم، لكنــي بــدأت بدايــة ضعيفــة بــرأس مــال متوســط دبَّــره لي والــدي رغــم أنــه كان في إمكانــه تدبــير ضعــف هــذا المبلــغ، أو حتــى يشــتري لي صيدليــة أتملكهـا! كان يتحجـج بـأن لديـه التزامـات أخـرى تجـاه أمـي وأختـي. أضـف إلى ذلـك أن الصيدليـة كانـت تقـع في منطقـة سـكنية هادئـة بجـوار معهـد للسـياحة والفنـادق، فلـك أن تتخيـل كيفـت كانـت الفـترة الصباحيـة مرهقـة بغـير عائـد مُـرضٍ؛ معظـم أسـئلة الطلبـة لا تخـرج عـن إطـار كيـس الجـل وكبسـولة الصداع وأكيـاس الكريـم والفـوط الصحيـة وقيـاس الضغـط والتغيـير عـلى الجـروح بسـبب الشـجارات اليوميـة، وبمحصلـة في النهايـة لا تتعـدى المئتـي جنيـه. وبحلـول المسـاء وانـصراف طلبـة المعهـد تصـير المنطقـة كمدينـة الأشـباح بعدمـا كانـت منـذ لحظـات كميـدان العتبـة في صخبهـا. أسـتشـعر في كل يـوم حجـم الخـازوق الـذي أهـداني إيـاه المسـتأجر القديـم، الـذي أقنعنـي بـأن المنطقـة ذات كثافـة سـكانية عاليـة، وأن طلبـة المعهـد لا يتوقفـون عـن

دخـول الصيدليـة، وأنـه سـيخلي طرفـه رغبـة في السـفر. حاولـت إقنـاع نفـسي أن جهـاز البـلاي ستيشـن الـذي كان يلعـب بـه هـذا الشـاب داخـل الصيدليـة كان سـبب وجـوده الوحيـد هـو أنـه صيـدلي كسـول ومسـتريح ماديًّـا، لكـن تبـين لي مـع الوقـت غـير ذلـك!

- هههههههههـه اعـذرني عـلى الضحـك، كان اللـه في العـون. ولكـن مـا الـذي تنـوي فعلـه؟

- جديًّا أفكر في السفر.

- ولمـاذا قبـل التفكـير في السـفر لم تسـعَ في طَـرْق مجـالات أخـرى غـير مـشروع الصيدليـة؟

- بعـد تخرجـي مـن الكليـة منـذ سـبع سـنوات، نظـرت في المجـالات المتاحـة فلـم أجـد نفـسي تميـل نحـو مجـال الدعايـة الطبيـة ولا مقومـاتي تصلـح لهـا؛ فأنـا بطبعـي هـادئ وقليـل الـكلام ولا أحسـن الإقنـاع وتزيـين الـكلام، كـما لـدي تحفظـات عـلى هـذا المجـال بشـكل خـاص لمـا يتطلبـه في الكثـير مـن الأحيـان مـن عقـد صفقـات وتقديـم هدايـا لأجـل بيـع المنتـج وتحقيـق الهـدف السـنوي المطلـوب، كان حلمـي أن أعمـل في مجـال الإنتـاج أو الجـودة في مصانـع الأدويـة، وقمـت فعـلًا بالتقـدم وإرسـال السـيرة الذاتيـة لعـدد مـن المصانـع وجـاءني طلـب للمقابلـة بأحـد المصانـع الحكوميـة الضخمـة، وبعـد الموافقـة عـلى تعيينـي سـألتهم عـن الراتـب فوجدتـه ضعيفًـا جـدًّا! صراحـة اعتـذرت وأصابنـي الإحبـاط ولم تأتينـي فرصـة للعمـل في مصانـع الـشركات الخاصـة والعالميـة. فتوجهـت مبـاشرة للعمـل في الصيدليـات، وتنقّلـت مـن صيدليـة لأخـرى واكتسـبت خـبرة لا بـأس بهـا، حتـى قـررت أن أبـدأ مشروعـي الخـاص منـذ العـام المـاضي، فاسـتأجرت الصيدليـة وسـعيت في تطويرهـا وتحسـين مسـتواها، لكـن يبـدو أني سـأتخذ قـرارًا بتصفيتهـا عـن قريـب.

- أسأل الله أن يقدر لك الخير حيث كان يا عاصم.

- آمين يا رب.

- ماذا كنت تشاهد على اللابتوب؟

- أشاهد فيلم Batman Begins.

- لا زلت كما أنت، مجنون كوميكس.

- بالتأكيد، دعنا نرى ماذا سيفعل كريستوفر نولان مع كريستيان بيل هذه المرة!

بينما هما جالسان يتجاذبان أطراف الحديث سمع تميم نداء أبيه له من الخارج، فقام وسلَّم على عاصم وتواعدا كالعادة على لقاء قريب.

عاد تميم وأبوه إلى البيت في الثامنة والنصف مساء. دخل غرفته ولم يكن أخوه قد عاد من الدرس بعد، فغيَّر ملابسه وفتح اللابتوب وجلس به على السرير أملًا في أن يجد كلارا فيكمل معها دردشته، ولكنه لم يجدها، فأخذ يراجع المحادثات السابقة بينهما حتى غلبه النعاس.

***

القاهرة، الخميس 2 فبراير 2006

كان تميم قد أضاف كلارا إلى قائمته البريدية الطويلة التي يرسل إليها بصفة دورية كل ما يراه طريفًا ومفيدًا. وكانت كلارا تهتم برسائله وتتابعها خصوصًا التي تحمل صورًا شائقة، أما ما كان يحتوي على مقالات باللغة العربية فكانت تتجاهله ولا تستفسر عنه، إلا هذه الرسالة البريدية التي وصلتها يوم الأربعاء 1 فبراير، وفيها مقال باللغة العربية يتصدره صور لعدد من المنتجات الغذائية وصورة لعلم الدنمارك مشطوب بالأحمر.

كانت المحادثة بينهما قد انقطعت لبضعة أيام، في كل يوم ينتظرها تميم بالساعات فلا يجدها، حتى ظهرت يوم الخميس مساء في حالة Busy، فكتب لها على الفور:

- كلارا، أين كنت طيلة هذه الأيام؟

فأجابته بعدها بدقيقتين:

- أهلًا تميم، كيف حالك؟ أبدًا لا شيء، فقط كنت منشغلة مع أمي لأن مرضها يشتد عليها بين الحين والآخر، خاصة في هذا الطقس البارد.

- خيرًا؟ ماذا بها؟

- هي تعاني من قصور مزمن في إفراز الغدة الدرقية.

- يا ربي! إنه مرض لعين فعلًا، خالتي تعاني منه منذ سنوات، وتأخذ له علاجًا دائمًا. أسأل الله تعالى لها ولمارجاريتا الشفاء.

- آمين، أشكرك. قل لي؛ ماذا كان في هذه الرسالة البريدية التي فيها صورة لمنتجات غذائية وعلم الدنمارك مشطوب عليه بالأحمر؟

- نعم؛ هذه الرسالة، ربما وصلتك بالخطأ؛ فأنا لي قائمة بريدية أرسل لها كل الرسائل بغير استثناء لأحد. وهذه حملة مقاطعة للمنتجات الدنماركية دعت إليها كل الجهات الإسلامية كإجراء ضد الرسومات المسيئة لرسولنا محمد -عليه الصلاة والسلام- التي نشرتها صحيفة يولاندس بوستن في سبتمبر الماضي، وأعاد نشرها عدد من الصحف الأوروبية مؤخرًا.

- لقد شاهدت بالفعل هذه الصور وأرى أنه أمر غير لائق وسوء استخدام لحرية الرأي والتعبير، وبالتأكيد لكم الحق في هذا الموقف الغاضب بغض النظر عن الإجراءات المتخذة.

- أشكرك لذلك.

- لكن عندي سؤال أرجو ألا يساء فهمه، هل لي الحرية أن أسأل؟

- نعم؛ بالتأكيد.

- لماذا يظهر لنا دائمًا من المواقف ما يثبت أن دينكم حقًّا دين عنف وقهر ودموية؟

- بالطبع هذا افتراض عارٍ عن الصحة، وشبهة تلوكها الألسنة بلا أي وعي أو تفكر، وإن كانت هناك للأسف مواقف تَمُرُّ بها توحي بصحة بذلك. سأرسل لك اليوم أو غدًا على الإيميل مقالات علمية بالإنجليزية توضح ذلك أفضل من كلامي المُرسَل، فالأمر ليس بهذا التعقيد. لكن ما يمكنني أن أقوله الآن وما يهمني أن تنتبهي إليه كلارا هو لفتة تاريخية

مهمة؛ فقديمًا، في العصور الوسطى، كانت بلاد الشام تعتبر حلقة الوصل بين بلادنا وبلادكم، وطبيعي أن يعيش بين المسلمين بعض الكارهين والمعادين لهم، والذين منهم بعض مسموعي الكلمة من علماء الدين المسيحي والرهبان. كيوحنا الدمشقي على سبيل المثال، الذي عاش في أكناف الدولة الأموية، وكتب عددًا من المؤلفات التي تعتبر من أبكر الدراسات المسيحية الشرقية عن الإسلام، وضمنها القدح في الإسلام والقرآن الكريم ونبينا محمد -عليه الصلاة والسلام-، والزعم بأنه بدعه مسيحية لواحد من أتباع آريوس أحد كهنة الإسكندرية. فكِّري في هذا الأمر: إذا كان عربي النسب واللسان كيوحنا الدمشقي، يلجأ إلى كتابة مفترياته وتشويهاته المتعمدة باللغة اليونانية خشية رد الفعل العلمي والاجتماعي والسلطوي، فلك أن تتخيلي كلارا ما يمارسه غيره ممن يعيشون في أرجاء أوروبا حيث لا يعلمون عن الإسلام وعقيدته وشريعته وتطبيقه سوى ما يتلقفون من إنتاج نظائرهم في المشرق الإسلامي، ثم يضيفون إليه أوهامهم وخيالاتهم من أساطير وحكايات، ثم يقدمونها إلى عموم الناس على أنها حقائق ووقائع ثابتة!

يمكن القول بأن التصورات المعاصرة لديكم حول ديننا بشكل عام لم تتكون وترتسم في صفحة بيضاء خالية، وإنما انعكست في مرآة قديمة مشوهة. لم يتغير على مر الزمن إلا مصدر هذه الأفكار المغلوطة دون أن يتغير طابعها. أسألك سؤالًا: كيف كان انطباعك عن مصر وماذا كانت معلوماتك عنها قبل مجيئك إلى شرم الشيخ؟ أليست الصحراء والجمال والأهرامات والآثار الفرعونية والصور التذكارية التقليدية.

- نعم؛ بشكل كبير، ولكن ذلك لأني لم أجتهد في البحث لا سيما مع توفر الإنترنت.

- ثـم اتضـح لـك وقـت المعاينـة أن الأمـر أبعـد مـا يكـون عـن تصـورك. هـذا تمامًـا كـما لـو اجتهـدت في البحـث عـن معلومـات صحيحـة عـن الإسـلام عـلى الإنترنـت.

- يبدو أنك قارئ جيد وتتناقش في هذه الأمور كثيراً.

- ليـس بالـضرورة، ولكنـي أحـب عـادة وضـع الأمـور في نصابهـا والبحـث وراء الأشـياء.

- قـد يكـون كلامـك صحيحًـا، فأنـا لم أهتـم بالقـراءة عـن الإسـلام، وكل معرفتـي بـه هـو مـا تتناقلـه وسـائل الإعـلام، وانطباعـي عـن معارفنـا وجيراننـا المسـلمين، والذيـن أراهـم يعيشـون مثلنـا تمامًـا ولا يلتزمـون بـأي شيء مختلـف سـوى بعـض الفـروض الشـكلية التـي لا أفهمهـا، هـذا إن التزموا بها في الأسـاس.

- مـا يدنـدن حولـه الإعـلام الغـربي بشـكل عـام هو أن الإسـلام دين شـهوانية وعنـف، وأنـه تمسـك بفـروض شـكلية وليـس تزكيـة للقلـوب وتطهـيراً لهـا. ومـا قـد تحتكـين بهـم مـن نمـاذج في حياتـك اليوميـة ليسـوا حجـة أو دليـلًا عـلى صحـة الديـن أو فسـاده، بدهـي أن الخطـأ في التطبيـق ليـس دليـلًا عـلى فسـاد المشـغِّل ذاتـه. لا ينبغـي أن نحاكـم الإسـلام بأخطـاء المسـلمين.

- أتفق معك في هذا.

***

القاهرة، السبت 25 فبراير 2006

تمُر الأيام والليالي والمحادثات بين تميم وكلارا تنجم عن قدر كبير من التناغم والانسجام. أصبحت كلارا مع الوقت أكثر انبساطًا في كلامها وأكثر تحدثًا عن نفسها؛ فحكت له عن والدها والمأساة التي مرت بها ووالدتها منذ عشرين سنة، وحكت له عن أشياء لم يكن ليعرفها قبل ذلك.

في المقابل، زاد قلب تميم تعلُّقًا، بل وازداد بمرور الوقت قلقًا وتخوفًا من التجرؤ والإفصاح عن مشاعره لكلارا فتصُدَّه ويخسرها للأبد. كان كل يوم يسأل نفسه:

- ماذا أفعل؟ لا بد أن أصارحها وأقطع دابر هذا الأمر أيًّا كان الرد.

حتى تشجع في ليلة شتوية وأرسل لها رسالة **Offline** على الماسنجر كتب فيها:

- متى يتسع وقتك لكي أتحدث معك في أمر مهم قد يطول الكلام فيه ولا أحب مقاطعته؟

وجاءه الرد بعدها بساعة:

- من الممكن غدًا في العاشرة مساء بالتوقيت عندي.

فأجابها على الفور:

- يعني التاسعة عندي، جميل جدًّا، على الموعد بإذن الله. شكرًا كلارا.

سرَت القشعريرة في جسده لا يدري هل هي بسبب برودة الجو أم بسبب الخوف، وأصابته حيرة شديدة هل يخبر والديه أم يتحدث إلى كلارا أولًا؟ ومتى يخبرهما وهما نائمان الآن؟ وكيف سيكون الحال لو أخبرها أولًا ووافقت ورفضا؟

ازداد التنميل في أطرافه، فأوقد المدفأة وقفز إلى فراشه محاولًا تسكين نفسه والخلود إلى النوم، ممنِّيًا نفسه بأنه لن يكون إلا الخير بإذن الله.

***

مضت الليلة بصعوبة، وكان الاستيقاظ أصعب، والذهاب إلى العمل في هذا اليوم المطير كان أصعب وأصعب:

- كيف سأصل في التاسعة وأنا لا أستطيع رفع اللحاف عن جسمي؟

لم يسعفه الوقت للحديث إلى أمه في شيء قبل النزول، ولا إلى أبيه الذي سافر إلى بورسعيد منذ الصباح الباكر. نزل تميم واستقل سيارته، ليصل إلى عمله في العاشرة إلا ربعًا.

تمُر ساعات اليوم ببطء شديد، ينتظر التاسعة مساءً بشوق وترقب، حتى تنقضي ساعات العمل في تمام الخامسة. يدخل تميم بيته ، فلم يجد من يسلِّم عليه؛ كان أبوه لا يزال في سفره وأمه تثرثر مع جارتها في الشقة المجاورة وأخوه في الدرس. توجه مباشرة إلى المطبخ لينظر ماذا طهت والدته ليتجنب سماع الكلمة التقليدية: «لقد سألتكم جميعًا وكلكم أجبتم بأن أطبخ أي شيء».

وجد حلتين على البوتاجاز فرفع غطاءهما ليجد بداخل إحداهما بازلاء مطبوخة بالجزر وبالأخرى أرزًا. رأي أن يكظم غيظه وأن يتجنب

أية حوارات في هذه الليلة، فأعد لنفسه طبقًا صغيرًا يخرس به معدته المتأوهة، وأكله واقفًا في مكانه، ثم صلى المغرب وضبط منبه الهاتف ليوقظه قبل التاسعة. دخل غرفته واستلقى على سريره محاولًا النوم قليلًا لكنه لم يستطع، كادت رأسه تشتعل من التفكير.

قام إلى المطبخ قبل التاسعة بعشر دقائق ليعد كوبًا من النيسكافيه، وكان أبوه قد عاد من سفره منهكًا فأخلد إلى النوم، ونامت أمه هي الأخرى، ولم يكن كريم قد عاد من الدرس بعد.

لمح تميم على رخامة المطبخ سبرتاية نحاسية قديمة خاصة بوالديه يستخدمانها يوم الجمعة لشرب القهوة معًا كعادتهم منذ بداية رحلة الزواج. لم يكن تميم يلتفت إليها على الدوام؛ لأن هذا لم يكن مكانها المعتاد في المطبخ، ولم يكن من هواة القهوة التركية، إلا أن شكلها الأنتيكي أثاره لأن يستخدمها لتسوية فنجان من القهوة على مهل. استغل نوم والديه فتسلل إلى النيش واستل منه فنجانًا وطبقًا قديمين مزركشين محظور استخدامهما، وضعهما مع السبرتاية والكبريت في صينية، وكنكة وضع فيها ملعقة سكرٍ وملعقتان بُن أردني غامق مخصوص أحضرته خالته في سفرها الأخير، وخلطهما بالماء، ثم دخل إلى الغرفة ووضع الصينية على المكتب بجوار اللابتوب.

أوقد السبرتاية ووضع عليها الكنكة، ثم جلس أمام الماسنجر في انتظار كلارا. يمر الوقت فيلتفت إلى السبرتاية فيجدها لم تسوي القهوة حتى اللحظة، فانتبه إلى الفتيل فوجد شعلته ضعيفة جدًّا تكاد تنطفئ، فأدرك أن السبرتاية في حاجة للتزويد. أنزل الكنكة ونفخ في الفتيل فأطفأه، ثم أحضر زجاجة السبرتو والقُمع الصغير من أسفل حوض المطبخ وبدأ في

تزويـد السـبرتاية، ليفاجـأ بالفتيـل يشـتعل تلقائيًّا محدثًـا صوتًـا مفجعًـا جعـل تميـم ينتفـض. مـن شـدة فزعـه ألقـى بزجاجـة السـبرتو المفتوحـة فأمسـكت بهـا النـار فأحدثـت انفجـارًا، وانتقلـت النـار لتمسـك في مـلاءة سريـر كريـم المجـاور للمكتـب... الغرفـة تشـتعل!

انخلع قلب تميم من الخوف:

- ما الذي يحدث! يا لطيف يا رب.

خـرج سريعًـا مـن الغرفـة وأغلـق البـاب خلفـه، فدخـل الحـمام ليمـلأ دلـوًّا كبـيرًا بالمـاء ليعـود بـه سريعًـا إلى الغرفـة فيجـد النـار قـد زحفـت إلى السـجادة. أطـاح المـاء بقـوة إلى داخـل الغرفـة، ثـم أغلـق البـاب وعـاد إلى الحـمام ليمـلأ الدلـو ثانيـةً، فخـرج ليجـد أبويـه قـد اسـتيقظا مـن النـوم ووقفـا مفزوعـين عنـد بـاب الغرفـة يسـألانه عـمّا يحـدث:

- أفسحا من أمامي الآن!

قـذف بالدلـو الثـاني فخمـدت النـار ولم يبقـى منهـا سـوى القليـل المتناثـر، فخـرج ليمـلأ الدلـو ثالثـةً وعـاد إلى الغرفـة ليطفـئ مـا تبقـى مـن الحريـق، وفتـح النوافـذ ليخـرج الدخـان ويتجـدد الهـواء... الحمـد للـه!

- ما الذي حدث يا بني؟

- لا أدري يـا أمـي، وجـدت السـبرتاية عـلى الرخامـة فاسـتخدمتها لعمـل فنجـانٍ مـن القهـوة، ثـم اكتشـفت بعـد أن أشـعلتها أنهـا في حاجـة إلى زوادة، فنفخـت فيهـا فأطفأتهـا وأحضرتـك السـبرتو وبمجـرد مـا بـدأت التزويـد حتـى اشـتعلت وأحدثـت صوتًـا غريبًـا فأصابنـي الذعـر وألقيـت زجاجـة السـبرتو وحـدث مـا حـدث.

- اللـه يهديـك! يـا بنـي أنـا تركتهـا عـلى الرخامـة لأتذكـر أن أزودهـا بالسـبرتو قبـل أن أعيدهـا للـدولاب، لمـاذا لم تسـأل طالمـا لم تجدهـا مكانهـا؟!

قطع عثمان كلامها حينما وجد غطاء الفتيل بجوار السبرتاية:

- لحظـات يـا كوثـر: هـل تقـول أنـك زودتهـا بغـير أن تضـع هـذا الغطـاء فـوق الفتيـل؟

- هاه؟ نعم؛ هذا ما حدث.

فاشتاط والده غضبًا:

- نعـم! هـل يوجـد عاقـل يفعـل مـا فعلـت! أنـت عندمـا تنفـخ في الفتيـل لتطفئـه يظـل الجـزء السـفلي المغمـوس في السـبرتو مشـتعلًا، ولذلـك لا بـد أن تكتمـه بالغطـاء. طبيعـي عندمـا تقـوم بتزويـده بهـذه الطريقـة يشـتعل مجـددًا وبقـوة. مـا هـذا التهريـج؟ كنـت ستتسـبب في كارثـة!

- صراحـة لم أكـن أعـرف هـذه المعلومـة. عنـدك حـق يـا أبي، كـم أنـا أحمـق، الحمـد للـه أنه ستَر.

- أنت أحمق ومستفز!

أوقـدت أمَّـه ضـوء الغرفـة لتُصـدَم مـن هـول المنظـر، ثـم لمحـت ذاك الفنجـان عـلى المكتـب فـازدادت غضبًـا، واسـتدارت لتأخـذ دورهـا في تهزيـق تميم،لكـن مـا أن نظـرت إلى وجهـه في الضـوء صرخـت:

- يا ستير يا رب! ما الذي أصابك!

- ماذا؟!

هـرع إلى المـرآة وتفحـص وجهـه فوجـد رموشـه ومقدمـة شـعر رأسـه قـد احترقتـا.

- يا ربي ما هذا! لا تقلقي يا أمي، الحمد لله على كل حال.

عـاد كريـم مـن الـدرس للتـو، ففتـح بـاب الشـقة ليجـد سـحابة دخـان في استقباله، فظـن للوهلـة الأولى أنـه شيء محـترق في الفـرن، دخـل المطبـخ فلـم يجـد شـيئًا، ووجـد والديـه وتميـمًا مجتمعـين في غرفتـه، فأقبـل عليهـم وهالـه المنظـر.

- لا حول ولا قوة إلا بالله، سريري! ما هذا يا تميم؟!

- أبـدًا، كنـت أفكـر في عـلاج لكـثرة نومـك وصـوت شـخيرك المزعـج فرأيـت أن أشـعل النـار في السريـر!

لم يُنْهِ الكلمة حتى استقبل علبة المناديل في وجهه:

- أتهْزأ يا ابن الـ ***!

- إحم، آسف يا بابا.

لم يتمكـن تميـم وكريـم مـن دخـول الغرفـة هـذه الليلـة بسـبب الدخـان ورائحـة الحريـق، فـتركا النافـذة مفتوحـة وأغلقـا بـاب الغرفـة، وافترشـا الأرض في الصالـة.

- منك لله يا أخي!

- اصمـت يـا كريـم، لا أتحملـك أنـت الآخـر، سـأتركك تسـتخدم سريـري وأنـا سـأنام عـلى الأرض لحـين شراء مرتبـة جديـدة، مـاذا تريـد أكـثر مـن ذلـك؟ احمـد اللـه ونَـم!

يا إلهي... كلارا!

❊❊❊

استيقظ تميم في الصباح على صوت خبط قوي؛ فقد اعتاد والده على إغلاق باب الشقة بشدة كلما ذهب أو عاد إلى المنزل. أتبع هذا الخبط ضجيج في المطبخ القريب من الصالة؛ تقريع أكواب وأطباق ومياه منهمرة. نظر في الساعة فوجدها لا تزال السابعة والنصف:

- ياه يا أمي!

دخل عليها المطبخ والنعاس يغلبه:

- هل ضاق الوقت يا أمي لغسل المواعين في هذا الوقت من الصباح؟

فأدارت وجهها تجاهه وقالت له بامتعاض شديد:

- وهل قال لك أحد أن تنام في الصالة؟ وكيف الحال وأنتم جميعًا تنتهون من عشائكم وتلقون الأطباق والأكواب في كل مكان وأنا أقوم بجمعها وغسلها وكأني خادمة المنزل، حتى أبوك يـ...

- حسنًا حسنًا يا أمي، لك الحق، صباح الخير.

- شيء من الخجل!

- حاضر. صحيح يا أمي، أود أن أسألك سؤالًا مهمًّا جدًّا وأرجو أن يتسع صدرك له.

- سأحاول إذا لم تُثِر أعصابي كعادتك أنت وأخوك.

- ما رأيك في الزواج من أجنبية؟

- ولِمَ هذا السؤال في الصباح الباكر؟

- أبدًا، سؤال بدر إلى ذهني لا أكثر من ذلك. من حيث المبدأ، ما رأيك؟

- الأجانـب تختلـف عاداتهـم وتقاليدهـم وطباعهـم عنّـا كثـيراً، لكـن لا أرى هنـاك مـا يمنـع طالمـا هـي عفيفـة وأخلاقهـا حسـنة.

- حتى لو كانت غير مسلمة؟

- تميم! ماذا تريد بالضبط؟!

- لا شيء يـا أمـي، فقـط أدردش معـك وأحـب أن أعـرف وجهـة نظـرك، لي صديـق قـد يفعـل ذلـك قريبًـا.

- ومـا الـذي يضطـره لذلـك؟ عمومًـا لقـد سـمعت منـذ وقـت مـن أحـد شـيوخ الأزهـر في برنامـج تليفزيـوني أن الأمـر مبـاح طالمـا هـي عفيفـة وأخلاقهـا حسـنة كـما قلـت لـك.

- وما رأي أبي في هذا الأمر؟

- وما دخل أبيك بشأن صاحبك؟! لا أدري.

- لا تدري تمامًا؟

- تميم!

- حسنًا حسنًا يا أمي، صباح الخير.

لم يدقـق تميـم كثـيراً في معرفـة رأي أبيـه لثقتـه بأنـه متفتـح الذهـن ولا يدقـق في تفاصيـل الأمـور، عـلى عكـس أمـه، فانـصرف إلى غرفتـه ليتأملهـا في نـور الصبـاح، فحـزن كثـيراً للمنظـر ولرائحـة الغرفـة، فأخـذ ملابسـه المبخَّـرة برائحـة الدخـان ودخـل إلى الحـمام ليلبِّـي نـداء الطبيعـة، وأطـال النظـر في المـرآة:

- مـاذا سـأفعل في هـذا المنظـر؟ الأمـر لا يتحمـل فضـول واسـتظراف الجيران وزمـلاء العمل.

عـاد تميـم إلى الصالـة ليحـضر هاتفـه، وكان أخـوه لا يـزال مفترشًـا الأرض في نـوم عميـق يغبطـه تميـم عليـه، فانتبـه تميـم إلى رأس كريـم الـذي يحلقـه دائمًـا بماكينتـه الكهربائيـة الخاصـة؛ فبشرتـه السـمراء ورأسـه المسـتديرة وشـعره الخشـن يسـاعدونه كثـيرًا عـلى ذلـك، واشـترى الماكينـة توفـيرًا لوقـت وثمـن الذهـاب لصـلاح الحـلاق.

لم يأخـذ الأمـر كثـير وقـت في التفكـير حتـى قـرر تميـم أن يسـتعين بماكينـة أخيـه ليريـح دماغـه مـن هـذا المواقـف المتوقعـة؛ فدخـل الحـمام وحلـق رأسـه ونظـف الماكينـة جيـدًا بالسـائل المطهـر قبـل وبعـد الاسـتخدام، واسـتعان بكامـيرا الهاتـف ليضبـط قفـاه. ثـم قـام بالاسـتحمام سريعًـا وارتـدى ملابسـه في الحـمام ونـزل. لمـح أمـه تدخـل الحـمام مـن خلفـه وهـو يفتـح بـاب الشـقة، فخـرج وأغلـق البـاب سريعًـا، ليسـمع صوتهـا مـن وراء البـاب وهـي تـصرخ:

- ما كل هذا الشعر الذي يسد الحوض؟ يا كريم!!

***

يمـضي تميـم يومًـا هادئًـا في العمـل، لكنـه لا يسـلم مـن نظـرات الزميـلات المختلسـة وأسـئلة الزمـلاء الفضوليـة والكليشـيهات المحفوظـة:

- ما هذا؟ هل قمت بمعاكسة ابنة الحلاق؟ هاهاهاها.

- خيرًا؟ هل استُدعيت للجيش؟

- حمد الله على سلامتك؟ كنت في عمرة أم ماذا؟

وكان يجيب الجميع ببرود:

- أبدًا، هذا نيولوك... يا إلهي متى ينقضي هذا اليوم؟!

في تمـام الخامسـة، ينـصرف تميـم إلى المنـزل. يفتـح البـاب ويسـلم عـلى أمـه

الجالسة في الصالة تحكي لأختها في الهاتف ما حدث بالأمس. دخل إلى الغرفة وغيَّر ملابسه ثم دخل المطبخ فوجد سبانخ وأرزًا:

- أستغفر الله!

دخل غرفته ليغير ملابسه ثم عاد لأمه التي أنهت المكالمة، فبادرها بسؤالها:

- ألا يوجد طعام غير السبانخ؟

- لا، هيا اذهب إلى المطبخ وكل سريعًا لكي ننزل، أراك بدلت ثيابك؟

- ننزل إلى أين؟ أنا متعب!

- نذهب لنشتري مرتبة جديدة بدلًا من التي أحرقتها بالأمس.

- وأين أبي؟

- ذهب مع عمِّك جلال في مشوار.

- لا حول ولا قوة إلا بالله، حاضر، اتركيني إذن أسترح قليلًا.

- لا وقت للراحة، المتجر الذي سنذهب إليه يغلق باكرًا، وأنا أيضًا لا أريد التأخر لأني متعبة منذ الصباح وأريد أن أنام، سأعد لك الطعام لتأكله سريعًا ثم نتحرك.

- وماذا عن كلارا؟

- نعم؟

- أبدًا لا شيء، لا شيء يا أمي، حاضر.

ارتدى تميم ملابسه التي لا زالت ملقاة على السرير، ثم فتح اللابتوب ليكتب رسالة اعتذار إلى كلارا، وجلس أمامه يأكل السبانخ في صمت، مُمَنِّيًا نفسه بالطعام الروسي الذي لا يدري عنه شيئًا.

دخلت عليه أمه وقد استعدت للنزول، فوجدته لا يزال جالسًا منهمكًا في الكتابة، فقالت له في غضب:

- يا بني لا وقت للإنترنت وهذه المحادثات الفارغة، الرحمة يا بارد!

- ليست فارغة والله يا أمي بل هي رسالة مهمة جدًّا أكتبها، فقط أعطيني ثلاث دقائق.

- والله ولا دقيقة، هيا قم حالًا! ولعلمك هذه المرتبة سأدفعها من فلوس الملابس الجديدة التي كنت أنوي إعطاءها لك هذا الشهر، إن أردت الشراء فاشترِ من راتبك لعلك تشعر بقليل ممَّا نشعر به.

- لكن يا أمي كنت أنتوي شراء مستلزمات للسيارة من الراتب... لكن حاضر!

***

عاد تميم وأمه إلى المنزل في تمام التاسعة، وقد دفعت ثمن مرتبة ووسائد جديدة، واشترت كذلك وسائد لسريرها بدلًا من الوسائد القطنية القديمة التي تسبب لها الصداع وآلام الرقبة أثناء النوم، واتفقت مع البائع على شحنهم إلى المنزل باكرًا في الصباح. ليلة أخرى سيقضيها تميم على الأرض، لا يطيق النوم إلى جوار أخيه كثير التقلب والحركة:

- لله الأمر!

دخلت أمه إلى غرفتها لتؤدي وِرد التليفون اليومي، وتفقد تميم غرفته فوجدها قد تهوَّت جيدًا وأصبحت صالحة للاستخدام، فدخل إلى المطبخ لإعداد كوبٍ من الشاي ليهنأ بسريره قبل عودة كريم. فتح الماسنجر وكان حساب كلارا في حالة **Busy**، فأرسل لها وكزة **Nudge** فلم تجبه،

فكتب رسالة اعتذار طويلة يحكي ما حدث وكيف أن الأمر خارج تمامًا عن إرادته، فأرسلها وجلس يترقَّب.

بعد عشر دقائق لاحظ أنها بدأت تكتب، ليصله منها الرد:

- أبدًا يا تميم لا عليك، على كل حال بالأمس كنت موجودة لأبحث عن شيء ما في الإنترنت، فلا تنزعج. وبخصوص ما تعرضت له فهو في غاية الخطورة وحمدًا لله أنه مرَّ بخير.

أطال تميم النظر في الرسالة وقال: ما هذا البرود الروسي القاتل! يبدو أن شيئًا لم يخطر ببالها قَط، أفأكمل المحاولة أم أصرف نظرًا؟

ظل هكذا متحير للحظات حتى حسمت كلارا المسألة من طرفها وكتبت له:

- هل الوقت مناسب الآن؟

فأجابها بغير تردد:

- مناسب جدًّا.

- وهو مناسب لي كذلك، أنا معك.

زاد قلب تميم من خفقانه وسرَت رعشة في جسده، لم يدرِ ماذا يقول، مُحي من ذهنه كل السيناريو الذي أعده مسبقًا وظل يلقنه لنفسه طوال اليوم والليل:

- يا ربي لقد نسيت كل شيء! كانت مقدمة رائعة ومدخلًا خاطفًا وقويًّا، ماذا أكتب الآن؟ لقد انتهى الأمر!

طال انتظار كلارا، فكتبت:

- أين ذهبت؟ هل أنت بخير؟

فأجابها سريعًا:

- نعم نعم؛ أنا بخير، فقط متردد قليلًا في الكلام ومتخوف من الرد.

- وعلام كل هذا؟ لا تخف الأمر بسيط، خذ وقتك، لا تحمل هَم شيء.

- شكرًا جزيلًا كلارا، فهذا من طيب أخلاقك التي شجعتني على أن...

- ؟؟؟

- كلارا...

- نعم؟

- أريد الزواج منك.

- ههههههههه

- !!!

- أنت تمزح بالتأكيد.

- أبدًا.

- هل تعي ما تقول؟

- تمامًا كلارا، أنا أريد الزواج منك.

- هذه مشاعر لطيفة منك يا تميم، لكن كيف ذلك وأنا روسية وأنت مصري؟

- وما الإشكال في ذلك، ألا يمكننا أن نعيش معًا في مكان واحد؟

- أنا مسيحية وأنت مسلم!

- وما المانع؟ هل تمانعين أنت من الارتباط بمسلم؟

- لم أفكر في هذا الأمر من قبل.

- ممَّ تتخوفين إذن؟

- صراحة لا أدري.

- مؤكد أنك ترغبين في وقتٍ كافٍ للتفكير؟ كنت أحتفظ بكلام كثير برأسي، ونسيته كله الآن، وليس لديَّ شيء يمكن أن أضيفه سوى...

- ؟؟؟

- سوى أن قلبي تعلق بك.

- ....

- أتفهم موقفك، خذي من الوقت ما يكفيك، وسأنتظر.

- حسنًا تميم، أعدك بالرد بكل صراحة.

ما أن قرأ تميم هذا الوعد حتى قفز على السرير وصاح فرحًا كأن المنتخب أحرز هدف الفوز في الدقيقة الأخيرة من المباراة. ففتح أبوه باب الغرفة وكان عائدًا لتوِّه من بعض المشاوير، فصاح به:

- ماذا بك يا ابن المجنونة؟

- أبدًا يا أبي، فرح قليلًا.

- ربنا يفرحك أكثر وأكثر ويهديك.

ثم استدار ليغادر الغرفة فوجد كوثر تقف على الباب مضيِّقةً عينيها، فقال لها بارتباك:

- أهلًا حبيبتي!

****

أنهت كلارا المحادثة مع تميم، والأفكار والمشاعر تتضارب في ذهنها كالأمواج العاتية؛ بين شعور عميق بالفرحة، يخالجه تخوف من عدة أمور:

- هل هو صادق في حبه أم يتزين وله في الارتباط بي مآرب أخرى؟

- هل سأرتبط بعربي، مسلم؟

- هل سيلزمني بالإسلام؟ أم سيترك لي الحرية في الاختيار؟

- هل ينوي العيش في روسيا أم مصر؟

- هل سأترك أمي وحيدة أم ستأتي للعيش معي؟

- هل الاختلاف في الدين واللغة والعادات صحي لإنجاب وتربية الأبناء؟

- الصداع سيفتك برأسي!

دخلت إلى مارجاريتها الغرفة ويبدو عليها التوتر، فسألتها:

- خيرًا يا ابنتي، ماذا بك؟

- أبدًا يا أمي، التوتر الذي ينتابني بين الحين والآخر، أريد حبةً من أقراص المهدئ الذي تستخدمينه كي أستطيع النوم.

- لا بأس يا حبيبتي، خذي حبةً واحدة من الدرج، وادخلي إلى فراشك وأطفئي الأنوار. اصرفي تفكيرك عن أي شيء يؤرقه.

- سأحاول يا أمي، تصبحين على خير.

***

اختفت كلارا عن النظر تمامًا، خمسة أيام لم يَزُل القلق فيها عن قلب تميم، أرسل لها رسائل على الماسنجر بحالته الـ «Offline»، فلم تجبه. أرسل إليها إيميل ليطمئن عليها، فلم يتلقَّ أي رد. كان مجبرًا على الانتظار وتهيئة النفس للرضا بما هو مقَدَّر ومكتوب.

في اليوم السادس ظهرت كلارا على الماسنجر للحظات في حالة Away ثم اختفت فور أن ظهر لها، فأرسل لها في الحال:

- كلارا! كيف حالك؟ أرجوك أن تردي على رسالتي، فأنا قلق جدًّا.

فجاءه الرد بعدها بدقائق:

- كيف حالك يا تميم، لا تقلق أنا بخير.

- إذن لِمَ كل هذا الغياب؟ لماذا لا تجيبين على رسائلي؟ ألم تعديني بالرد؟

- نعم؛ أنا وعدتك، لكني صراحة مضطربة جدًّا وحتى الآن لا أدري كيف أجيب. الأمر ليس بهذه السهولة.

- أعلم أنه ليس بهذه السهولة كلارا، وأعلم أن هناك تخوفات كثيرة تدور في رأسك وترهق ذهنك، لكن ما الإشكال في أن تحدثيني عن مخاوفك بصراحة وبغير حرج؟

- لا أظن أن ما يدور في ذهني يصلح للمناقشة.

- كيف ذلك؟!

- ....

- هل أستنتج من موقفك أن الأمر غير مرفوض من حيث المبدأ؟

- ....

- هل تحدثتِ مع مارجاريتا؟

- لا.

- هل من الممكن أن تعترض بسبب اختلاف الديانة؟

- لست متأكدة من ذلك، لكن لا أظن أن هذا سيكون محور النقاش؛ أمي تخاف عليَّ جدًّا وأكثر ما يهمها في الشخص الذي يرتبط بي أن يحافظ عليَّ وعلى أبنائي وأن لا يخونني؛ فشباب كثير هنا لا يتحملون مسؤولية الزواج ولا نفقات البيت والأولاد بل ولا نفقاتهم الشخصية، ويطالبون

الزوجة بالعمل والشقاء لأجل تدبير ذلك، وكثيراً ما ينتهي الأمر بالطلاق وتدمير حياة الفتاة والحكم عليها بالعيش كالأم العزباء. لذلك فهي اعترضت كثيراً على هذا الشاب الذي حكيت لك عنه قبل ذلك، وظنها فيه كان في محله.

- كلارا هذه السيرة تستفزني فأرجو أن لا تذكريها لي مرة أخرى.

- حسنًا، كان فقط من باب التوضيح لا أكثر.

- المهم...

- نعم؛ فكما قلت لك، لا أظن أن اختلاف الديانة سيكون سببًا جوهريًّا في الرفض، فأمي لها أصدقاء ومعارف من جيراننا مسلمين، وتعرف كيف يحافظ المتدين منهم على زوجته وأولاده.

- إذن ماذا من الممكن أن يكون سبب اعتراضها؟

- لا أدري يا تميم على وجه التحديد، لكن المؤكد أنها ستعترض على سفري، لأنها لا تحب فراقي طرفة عين، أم أنك تنوي الانتقال للعيش في روسيا؟ فأنت لم توضح.

- لا أظن ذلك، فلديَّ مشاغلي هنا لا أستطيع تركها بحال؛ نحن عائلة ميسورة الحال لله الحمد، أتقاضى راتبًا لا بأس به من عملي، إضافة إلى أن أبي يعتمد عليَّ في إدارة تجارته. ولو على مارجاريتا فالأمر بسيط جدًّا، تأتي لتعيش معنا في بيتنا في غرفة خاصة. أنا أحبها وأعدك أن أعاملها تمامًا كأمي.

- حقًّا؟! أنت ترحب بهذا؟

- نعم؛ بالتأكيد، ولم لا؟

- هـذا موقـف نبيـل منـك يـا تميـم، رغـم أني لا أظنهـا سـتقبله. في العمـوم أعـدك أني سـأفاتحها في الأمـر عندمـا أجـد مزاجهـا صافيًـا، وسـأخبرك بالـرأي النهـائي بـكل صراحـة.

- نعـم؛ أرجـوك كلارا، فأشـعر أن حيـاتي كلهـا قـد توقفـت انتظـارًا لقـرارك. ورجـاءً احـرصي عـلى اختيـار الوقـت المناسـب لمفاتحـة مارجاريتـا.

- نعم؛ أكيد، لا تقلق.

***

موسكو، الأربعاء 8 مارس 2006

كانت مارجاريتا على الدوام عكرة المزاج جرَّاء ما قاست في حياتها، لا تصفو ضحكتها إلا قليلًا، لم تعد تستطيع التخلي عن دواء الاكتئاب المداومة على استخدامه منذ سنين. في هذا اليوم عادت من صالون التجميل بعد جلسة تصفيف اختارت فيها لونًا وقصة جديدة لشعرها أتبعتها بجلسة مساج، فعادت منها سعيدة ومنتعشة. لم تفوِّت كلارا الفرصة الذهبية:

- ما هذا الذي أراه يا أمي؟ نضرة ورائعة، «لؤلؤة» حقًّا كما هو اسمك: «مارجاريتا».

- أشكرك يا حبيبتي. لقد استغرق الأمر وقتًا طويلًا، لكني سعيدة به. هل تناولتِ غداءك؟

- لا يا أمي كنت في انتظارك.

- حسنًا، فأنا جائعة جدًّا.

- سأعد أنا الغداء يا أمي.

- هذا فعلٌ غريب عليَّ كلارا لكني سعيدة به على كل حال! حسنًا سأنتظرك في الغرفة.

دخلت كلارا المطبخ لطهي ستروجونوف الدجاج مع الأرز الأبيض، ثم أعدَّت المائدة ودعت والدتها.

على الغداء سألتها:

- ما رأيك في الطعام يا أمي؟

- شهي يا كلارا، أنا مستمتعة به.

- هل أصلح بذلك أن أكون ربَّة منزل؟

- مؤكد تصلحين حبيبتي، أتمنى ذلك بفارغ الصبر، لا تدرين كيف أشتاق لرؤية أحفاد لي يشبهون فيكتور.

- أمي، هل تتذكرين تميمًا؟ الشاب المصري الذي تعرفنا به في شرم الشيخ العام الماضي؟

- نعم؛ أتذكره، ماذا به؟

- يعرض عليَّ الزواج؟

- في روسيا؟

- لا يا أمي، في مصر.

- في مصر! وهل تتركينني أعيش هنا وحيدة كلارا؟

- قطعًا أنا لا أرغب في ذلك. لكنه سؤال يا أمي؛ هل أستنتج من كلامك أنك توافقين على تميم والإشكال لديك في مكان العيش؟

ارتبكت مارجاريتا من السؤال المفاجئ وقالت:

- أنا لم أقل ذلك؛ أينعم هو شاب يبدو عليه الأمانة والاحترام، وشعرت بإعجابه بك وقتما كنا في شرم الشيخ وكتمت شعوري لكيلا لا ألفت نظرك أو أؤثر عليك، لأن أمر الزواج خاص بك في النهاية، وما يعنيني فقط هو

المحافظـة والاطمئنـان عليـك، فأنـا لا أملـك في هـذه الدنيـا غـيرك، فهـل يكـون جـزائي في النهايـة أن ترتبطـي بشـاب مـن بلـد أخـرى لتسـافري معـه وتتركينـي أعيـش وحيـدة يقتلنـي الحـزن والاكتئـاب؟

- كـما قلـت لـك فأنـا لا أرغـب في ذلـك يـا أمـي، ولكـن تميـم عمله مسـتقر في بلـده، فلـماذا يـترك هـذا ويـأتي ليغامـر بالعيـش هنـا ويبـدأ مـن الصفـر مجـددًا؟ بالمناسـبة هـو يبـدي ترحابـه الشـديد بـأن تنتقـلي للعيـش معنـا في مصر.

- لا أفعل هذا أبدًا!

- لماذا يا أمي؟

- لقـد كـبرت في السـن وبلغـت السـابعة والأربعـين، وهنـا حيـاتي وذكريـاتي ومصـدر رزقـي، كيـف أنتقـل بعـد هـذا العمـر لأبـدأ حيـاة جديـدة في بلـد جديـد، وأن أحمِّـل زوجـك الشـاب تكاليـف معيشـتي، لا لا، أنـا لا أقبـل هـذا ولم أعتَـدْ عليـه قَـط.

- أنت هكذا تصعبين عليَّ الأمر كثيراً يا أمي، فما العمل إذن؟

- هل تحبينه؟

- نعم يا أمي.

- وهل ظني أنا في تميم صحيح؟

- نعم يا أمي، هو شاب طيب ويحبني.

- إذن يـا حبيبتـي لا أسـتطيع أن أقـف في طريـق سـعادتك، فهذه أمانـة أمَّنَني إياهـا والـدك فيكتـور، ويجـب عـليَّ أن أتحمـل تبعـات هـذه الوصيـة. لكـن لو لي طلـب منـك فهـو أن لا تنسـيني كلارا، وأنـا هنـا لـن أُعـدَمُ مـن صديق.

- وهل يعقل أن أنساك يا أمي؟!

شـكرتها كلارا وارتمـت في حضنهـا طويـلًا، ثـم أنهيـا طعامهـما وقامـت كلارا لغسـل الصحـون ثـم لتـزف البـشرى إلى تميـم، بينـما دخلـت مارجاريتـا غرفتهـا وأحكمـت غلـق البـاب، وأجهشـت في البـكاء.

***

- وافقَت؟

- نعم تميم.

- حقًّـا؟ لا أصـدق ذلـك! لـك الحمـد يـا رب، كيـف أصـف لـك سـعادتي الآن؟!

- كـما قلـت لـك، كل تفكيرهـا كان منصبًّـا عـلى فكـرة السـفر والعيـش بعيـدًا عنهـا، وأنـا لا أخفـي عليـك تخـوفي مـن هـذا الأمـر، لا أدري مـا العمـل؟

- هل عرضت عليها أن تنتقل للعيش معنا؟

- نعم؛ لكنها رفضت.

- إذن، اتركيهـا بعـض الوقـت لتعايـش قسـوة الوحـدة، وهـي نفسـها سـتطلب منـك العيـش معنـا في مـصر، وإن لم تطلـب فجـددي أنـتِ لهـا العـرض لاحقًـا. حينهـا سـنكون عـلى الرحـب والسـعة.

- هل تتوقع ذلك؟

- بل أنا متأكد. والآن لدي اقتراح للخطوة التالية.

- ما هو؟

- مـا رأيـك في إقنـاع مارجاريتـا بقضـاء إجـازة الصيـف هـذا العـام أيضًـا في شرم الشـيخ، وأنـا أقنـع والـديَّ بذلـك، ونلتقـي هنـاك وتكـون فرصـة لتتعارفـوا جميعًـا.

- من حسن الحظ أن أمي تفكر بالفعل في قضاء الإجازة في مصر هذا العام أيضًا كما سبق أن وعدتك، لكنها تفكر بالسفر إلى الغردقة.

- رائع! يبقى الإشكال لديَّ الآن هو إقناع والديَّ بالغردقة.

- ولِمَ ذلك؟

- هما لا يحبانها كثيرًا، في رأيهما هي ليست بقدر جمال شرم الشيخ التي يعتادان السفر إليها. لكن لا عليك، سيكون الأمر سهلًا بإذن الله.

- أتمنى ذلك.

- حقًّا كلارا؟

- حقًّا تميم.

***

استيقظ تميم مبكرًا ليفاتح أمه في الأمر، كانت تجلس في الصالة تمسك بمصحفها تقرأ وردها اليومي من القرآن:

- صباح الخير يا أمي، كيف حالك؟

- صباح الخير يا بني، أنا بخير الحمد لله، فقط بعض الصداع سيذهب لحاله بإذن الله.

- شفاكِ الله وعافاكِ يا أمي. يبدو أن التوقيت غير مناسب للكلام، إذن سأقوم الآن لأتجهز للعمل ونتحدث في وقت لاحق.

- أبدًا يا تميم، لا تشغل بالك بالصداع، خيرًا ماذا بك؟

- لا شيء يا أمي، أنا بخير الحمد لله. أمي، هل تذكرين صديقي الذي يريد الزواج من أجنبية؟

- نعم؛ ماذا به، هل تزوجها؟

- ليس بعد، ولكني أرغب في أن أفعل مثله.

- ماذا تقصد يا تميم؟ هل تريد الزواج من أجنبية؟

- نعم يا أمي.

- من تكون؟

- هي فتاة روسية تعرفت عليها في رحلة شرم الشيخ.

- روسية في شرم الشيخ؟! وماذا فعلتما معًا؟ انطق حالًا!

- لم نفعل شيئًا يا أمي! لماذا دائمًا تفكيرك يشط هكذا؟ يا أمي هي فتاة جميلة ومهذبة، ولم تكن أمها تفارقها لحظة، ولم نختلِ ببعض أبدًا، بل لم نتكلم إلا قليلًا جدًّا، فقط بعض الدردشة الخفيفة بيني وبينها هي وأمها، ولم أراها إلا خلال يومين فقط، ثم راسلتها وتكلمنا وتعرفت بها أكثر على الإنترنت، وأعجبت بشخصيتها وتعلق قلبي بها وأشعر الآن أنها فتاة أحلامي.

- وماذا تركت لأخيك الصغير الطائش؟ كيف يكتمل زواج بأفعال المراهقين تلك؟

- يا أمي أنا رأيتها وانطباعي عنها جيد، وهي تبادلني نفس الشعور، وليس لديها إشكال في الزواج مني، فأين المراهقة في ذلك؟

- معقول! أنت أخذت قرارك واتفقت معها ورأيي أنا ووالدك بالنسبة لك هو مجرد تحصيل حاصل؟!

- أبدًا والله يا أمي! كل الفكرة هو أني جسست نبضك منذ أيام بسؤالي عن رأيك بشكل عام، ولم أجد ممانعة في المبدأ. بعد ذلك لم أجد وقتًا مناسبًا للسؤال بشكل جاد. أو ربما أخطأت وتخوفت منك. لا أدري!

لكـن رأيـك عـلى الـراس، فرجـاءً يـا أمـي، أنـت تعلمـين جيـدًا أني أرشَـد مـن كريـم، فـلا تقارنينـي أو تقـارني أفعـالي بـه، ولا تقفـي في طريـق أحلامـي.

- أنـا لا أقـف في طريقـك، تعلـم ذلـك جيـدًا، أنـا فقـط متخوفـة مـن هـذا الأمـر.

- ولِـمَ هـذا التخـوف؟ أليـس سـعيد ابـن خالتـك متزوجًـا مـن لينـا الألمانيـة منـذ نحـو عشريـن سـنة ولـه منهـا ثـلاث بنـات؟

- نعـم؛ فلـماذا بالمناسـبة لا تختـار منهـم الزوجـة التـي تناسـبك طالمـا تبحـث عـن الأجنبيـة؟

- هههههههههه يا أمي ماذا تقولين، هل العلَّة في أنها أجنبية؟

- إذن ما العلَّة يا فيلسوف؟

- العلِّة أني أحبها وأراها صالحة لي.

- هذا حكمك وحدك؟ كيف سنحكم عليها أنا ووالدك؟

- أسعى في تدبير هذا الأمر بإذن الله.

- كيف؟

- حتـى الآن لا أعلـم تحديـدًا، ولكـن أعـدك بـإذن اللـه أن تلتقـي بهـا وبوالدتهـا كـما لـو كنـا سـنتقدم لأي فتـاة أخـرى هنـا في القاهـرة.

- وأين والدها؟

- هي يتيمة الأب، توفي في حادث تشيرنوبل وعمرها ثلاث سنوات

- ما هو حادث تشيرنوبل؟

- هـذه حكايـة أخـرى طويلـة أقصهـا عليـك لاحقًـا. لكـن المهـم الآن؛ هـل لي أن أسـتأذنك في شيء؟ أسـأل اللـه تعـالى أن يسـعدك ويبـارك فيـك.

- هل تساومني يا تميم؟ نعم؟

- أن تمهدي الأمر لوالدي حتى أراه في المساء.

- ربك ييسر الحال. أستحلفك بالله: أنت لم تفعل معها أي خطأ؟

- أبدًا يا أمي أقسم لك بالله، هل تظنين بي ذلك.

- لا يا بني، فقط ليطمئن قلبي.

- اطمئني يا أمي. أسأل الله تعالى أن يحفظنا من شرور أنفسنا ومن همزات الشياطين.

- آمين يا رب.

- سأقوم الآن لأغير ملابسي وأستعد للنزول.

- حسنًا يا بني.

***

أمضى تميم يومه وعاد إلى المنزل في الخامسة، فوجد والديه جالسين يظهر عليهما التحدث في أمر جاد، فسلَّم عليهما، فوجد أبوه يستقبله بابتسامة عريضة قائلًا له:

- أهلًا بك يا دنجوان العصر والزمان.

- أهلًا يا أبي، كيف حالك.

- بخير الحمد لله، أنت كيف حالك.

- الحمد لله. هل أمي أخبرتك بشيء؟

- نعم؛ كانت تحكي لي الآن قبل وصولك.

- وما قولك يا أبي؟

- انظـر يـا بنـي: أنـا أثـق بعقلـك وأخلاقـك وذوقـك العـام، ولذلـك فأنـا أعلـم أنـك تتكلـم في اختيـار شريكـة حيـاة لا في أحـلام مراهقـين، فلـن أسـألك عـن الفتـاة شـيئًا غـير أني أؤكـد عـلى وعـدك لأمـك بـأن تدبـر لنـا لقـاءً قبـل الارتبـاط.

- أسعى في ذلك والله يا أبي.

- جميل، فقط عندي سؤالان.

- وما هما يا أبي؟

- هـل تنـوي بزواجـك مـن أجنبيـة أن تهاجـر وتتركنـا؟ أنـت تعلـم أنـك ذراعـي الأيمـن ولا أسـتطيع التخـلي عنـك في عمـلي الـذي آمـل أن تتـولى إدارتـه مـن بعـدي.

- بعـد عمـر طويـل يـا أبي، أدام اللـه عليـك الصحـة والعافيـة. لا يـا أبي لم أنـوِ هـذا، بـل أسـعى في إقناعهـا بـأن تـأتي هـي لتعيـش معنـا.

- طمأنتنـي بـارك اللـه فيـك. إذن في هـذه الحالـة سـتكون الفتـاة في الحفـظ والصـون وسـنحملها فوق الـرؤوس.

- أنا واثق من ذلك يا أبي. ما الأمر الثاني؟

- نعـم؛ الأمـر الثـاني هـو كيـف تريـد الارتبـاط بهـا الآن وشـقتك التـي حجزناهـا لـك العـام المـاضي لـن نسـتلمها قبـل بدايـة 2007؟

- صراحـة يـا أبي لم أفكـر في هـذا الأمـر، لكـن لنمهـل هـذه المسـألة لوقتهـا بـإذن اللـه، فـلا أظنهـا سـتكون عقبـة كبـيرة بـإذن اللـه.

- آخـر شيء، فأنصحـك بالاسـتخارة قبـل أي قـرار، وأنـت لا تحتـاج لتوصيـة بهـذا الأمـر.

- أكيـد يـا أبي، أنـا مسـتخير وأدعـو اللـه كثـيراً، وسـيوفقني لمـا فيـه الخـير بإذنـه تعـالى.

- بإذن الله تعالى.

❊❊❊

الغردقة، الاثنين 8 مايو 2006، الثانية ظهرًا

تمكن تميم من إقناع والديه بالرحلة إلى الغردقة. سافر معهم كريم على مضض لكثرة إلحاح والديه بدعوى مشاركتهم الرحلة. في حقيقة الأمر كانوا يخشون تركه وحده في المنزل، أو حتى مع جدته، لعلمهم بطيشه وتهوره.

فور وصولهم المنتجع واستلامهم الغرفة، اتصل تميم بموظف الاستقبال ليستعلم عن رقم غرفة مارجاريتا ديميتري، والتي وصلت مع الفوج السياحي الروسي قبله بيوم، فأجابه بأنها الغرفة 407، فاتصل بها تميم وأجابته كلارا:

- كلارا! أنا هنا؟

- تميم! أخيرًا وصلت، لوهلة ظننت أنك لن تفعل، وأنها ستكون صدمة العمر.

- هل هذا ظنك في يا كلارا؟!

- أبدًا، فقط لحظة قلق، وأنت عهدتني صريحة معك، اغتممت؟ أنا فرحة جدًّا بمجيئك.

- لستِ بأسعد مني، كيف حالك كلارا؟ وكيف حال مارجاريتا؟

- نحن بخير حال، وأنت؟

- كل الأمور على ما يرام.

- متى وصلت؟

- وصلت هنا منذ نصف ساعة فقط، واتصلت بك فور استلامي الغرفة؟ أشتاق إليك كثيرًا لو تعلمين. أشعر كأني أحلم!

ضحكت كلارا ضحكة رقيقة ولم تجب، فأردف تميم:

- هل من الممكن أن أراك الآن؟

- لحظات أسأل أمي... سألتها وهي تُفَضِّل أن نلتقي جميعًا في اللوبي في الثامنة والنصف ونذهب لتناول العشاء معًا في المطعم. الآن يمكنك أخذ قسط من الراحة.

- ولِمَ هذه السخافة، لا أستطيع النوم الآن!

- اعذرني يا تميم، هذه رغبة مارجاريتا.

- حسنًا! تحت أمر مارجاريتا. على الموعد بإذن الله.

- على الموعد.

***

كانت أسرة تميم في اللوبي في الساعة الثامنة والنصف بالتمام. عند رؤيتهما من بعيد سرح تميم بخياله وشعر وكأنه يقبل مسرعًا على كلارا فيحتضنها ويحملها ويدور بها كما في الأفلام، لكنه سرعان ما تنبَّه وتذكر أن هذا لا يحِلُ له، فاكتفى بمصافحة خفيفة مصحوبة بكلمة:

- أنا سعيد.

لتجيبه كلارا:

- وأنا كذلك.

فلما جاء الدور على مارجاريتا فوجئ تميم بمصافحتها له بحرارة وتقبيلها له على وجنتيه، فضحك كريم وسلَّم عليهما بابتسامة عريضة ثم مال إلى تميم وهمس له في أذنه: «يابن اللعيبة!».

صافحهما والداه بحفاوة كبيرة خاصة والدته التي بدا لتميم أنها أعجبت كثيرًا بجمال كلارا ورقَّتها، حتى أنها احتضنتها طويلًا ثم أمسكت بيدها ورافقتها حتى دخول المطعم.

كان المطعم مزدحمًا بالنزلاء، فدارت أعينهم في المكان تبحث عن طاولة كبيرة تسعهم هم الستة، فأشار تميم إلى طاولتين متلاصقتين في أقصى اليمين همَّ الجالسون عليهما بالقيام، ودفع كريمًا ليسرع الخُطى ليحجزها لهم، في الوقت الذي يقومون فيه بإعداد أطباقهم من البوفيه. كانوا جميعًا جوعى، فأخذوا ما طاب لهم من الطعام ثم جلسوا على الطاولة، ليقوم كريم بعد ذلك لإعداد طبقه.

تجاذب الأهل أطراف الحديث بانسجام، وكان تميم يحاول التظاهر بعدم التوتر ولكن نبرة صوته المهزوزة الخافتة كانت تكشف ارتباكه كلما تكلم وطلب منه المستمع إعادة الكلام لعدم اتضاحه.

انتهى تميم من طعامه قبلهم ثم استأذنهم في الذهاب إلى الحمام، وسرعان ما عاد بعد دقيقة واحدة فقط. بعد انتهاء الجميع من تناول الطعام، همُّوا بالقيام لأخذ بعض الحلوى، فأسرع إليهم نادلٌ ليرفع أطباق الطعام عن الطاولة، ثم باغتهم نادلٌ آخرٌ بتورتة شيكولاتة صغيرة يضعها أمامهم، مكتوب عليها بالإنجليزية: «أُحِبُّكِ كلارا.. تميم»، ثم وقف تميم وأخرج من جيبه خاتمًا رقيقًا ليهديها إياه.

شـهقت كلارا ووضعـت يدهـا عـلى فمها مـن الفرحـة، وذرفـت عيناهـا بالدمـوع، فصفـق الجميـع بسـعادة بالغـة، وشـاركهم بعـض الجلـوس المحيطـين بالتصفيـق، وقـام بعـض السـائحين بالتصويـر والتهنئـة. احتضنـت مارجاريتـا كلارا وقبّلـت رأسـها ثـم ربتـت عـلى كتـف تميـم في فـرح وامتنـان، فقالـت والـدة تميـم لمارجاريتـا:

- لا تخـشي عـلى كلارا أي شيء، تمنيـت كثـيراً أن ألـد بنتًـا جميلـة مثلهـا، وهـا قـد اسـتجاب اللـه لي، فـلا تخـافي، هـي في الحفـظ والصون.

تأثرت مارجاريتا كثيراً لكلماتها واحتضنتها ثم قالت لها:

- أنـا واثقـة مـن ذلـك يـا كوثـر، فأنـت مـن الآن في مقـام أمهـا، والأسـتاذ عثـمان في مقـام والدهـا فيكتـور.

- بالطبع عزيزتي، ليس في ذلك أدنى شك.

***

موسكو، يونيو 2007

مـرَّ العـام بسـلام، وتحـدد صيـف 2007 لإتمـام الـزواج ويكـون تميـم قـد تمكـن مـن تجهيـز بيـت الزوجيـة لاسـتقبال كلارا. اتفقـا عـلى إتمـام إجـراءات الـزواج في روسـيا، ومـع اقـتراب الموعـد المحـدد أرسـلت كلارا لتميـم فيـزا للزيـارة.

اتفـق معهـا تميـم عـلى إتمـام إجـراءات الـزواج الشرعيـة أولًا؛ فبعـد أن وصـل إلى موسـكو وأراح بدنـه وتزيـن وتهيـأ في غرفـة الفنـدق الـذي مكـث فيـه ليلتـين بمفـرده، ذهـب بـكلارا إلى المسـجد الجامـع، مسـجد كاتدرائيـة موسـكو القريـب مـن منزلهـا، لإشـهار الـزواج وإتمامـه بحضـور المـأذون، ثـم توجهـا معًـا لمكتـب السـجل المـدني (زاجـس) ZAGS التابعـة لـه كلارا لإتمـام الإجـراءات القانونيـة وتقديـم الأوراق اللازمـة لذلـك. مـن حـظ تميـم أن اسـتلام الأوراق معتمـدة مـن الزاجـس يتطلـب 32 يومًـا بالتـمام، ولم يكـن في مقـدوره ولا مـن المناسـب لـه مغـادرة روسـيا ثـم العـودة مجـددًا بعـد شـهر لاسـتلامها، فقـررا مسـبقًا قضـاء شـهر عسـل طويـل في روسـيا في اسـتضافة مارجاريتـا التـي أظهـرت كرمًـا واحتفـاءً كبيريـن، وبراعـة في طهـي مـا يتميـز بـه المطبـخ الأوكـراني والـروسي، وكانـت تتحـرى شراء اللحـوم الحـلال احترامًـا لشريعتـه.

أعـدَّت كلارا لتميـم برنامجًـا سـياحيًّا مميـزًا عـلى مـدار الشـهر لزيـارة معـالم روسـيا الشـهيرة؛ فـزارا قـصر الكرملـين والسـاحة الحمـراء بمبانيهـا الأسـطورية، والتـي تعتـبر الميـدان المركـزي لموسـكو، وذهبـا إلى مدينـة سانبطرسـبرج لزيـارة قصورهـا ومتاحفهـا ومعالمهـا الفنيـة العريقـة، والتـي تعتـبر أحـد أهـم مراكـز أوروبـا الثقافيـة، ومـن أبرزهـا متحـف الهيرميتـاج الـذي تأسـس عـام 1764 ويطلـق عليـه دُرَّة متاحـف روسـيا، والـذي يعتـبر أحـد أكـبر متاحـف العـالم لاحتوائـه عـلى أكثر مـن 3 مليـون تحفـة فنيـة، ودخَـل مجموعـة جينيـس للأرقام القياسـية لاحتوائـه عـلى أكـبر مجموعـة لوحـات في العـالم. كـما ذهبـا لقضـاء ثلاثـة أيـام في منتجـع سـوتشي الخـلَّاب عـلى ضفـاف البحـر الأسـود للاسـتمتاع بطبيعتـه السـاحرة ومناخـه العجيـب حيـث في الإمـكان التزلُّـج عـلى ميـاه البحـر الدافئـة وعـلى الجليـد في الجبـال الشـمالية في نفـس اليـوم. ثـم دعتهـما روح المغامـرة إلى الانطـلاق في رحلـة سـفاري إلى جبـال القوقـاز الشـاهقة والتوغـل في ممراتهـا الجبليـة الضيقـة وطرقهـا المتعرجـة المتشـعبة ومنحدراتهـا الخطـرة، والمكـث لأسـبوع بـين قُراهـا القديمـة والتعـرف عـلى عـادات وتقاليـد سـكَّانها. لتمـضي كالعـادة الأوقـات الجميلـة سريعًـا، وتـأتي اللحظـة التـي طالمـا تحاشـتها مارجاريتـا؛ لحظـة الـوداع في المطـار، لحظـة الفـراق والألم. انهمـرت دموعهـا وكلارا طويـلًا حتـى فارقـت بينهـما البوابـة، بعـد الوصايـا الكثـيرة لتميـم وأخـذ الوعـد بلقـاء قريـب. لتجلـس بعـد ذلـك مارجاريتـا في المطـار وحيـدة تبـكي حتـى غلبهـا النـوم مـن التعـب. اسـتيقظت بعـد سـاعة لتجـد نفسـها جالسـة في مكانها ودموعهـا قـد جفـت عـلى وجههـا، فدخلـت الحـمام لتغسـل وجههـا، ثـم خرجـت لتسـتقل الأتوبيـس لتعـود إلى البيـت وتغلـق عليهـا والحـزن البـاب.

❊❊❊

القاهرة، السبت 7 يوليو 2007

كان تميم قد جهز بيته الصغير في منطقة النزهة الجديدة المكون من غرفتين وصالة، بمفروشات عصرية حرص على أن تناسب ذوق كلارا المائل إلى هدوء الألوان والبساطة. أتم تجهيزه بالكامل عدا بعض الأشياء البسيطة التي لم يسعفه فيها الوقت قبل السفر، منها صندوق كبير من الورق المقوَّى أحضر فيه بعض متعلقاته الخاصة من منزل والده، فانشغل عنه ولم يجد وقتًا لإخراج ما بداخله قبل السفر، فتركه في أحد أركان غرفة المعيشة، حتى عادا من روسيا.

في صباح اليوم التالي من عودتهما، استيقظ تميم من نومه بعد الظهر فلم يجد كلارا بجواره، فقام ليتفقَّدها، فوجدها في غرفة المعيشة جاثية بركبتيها على الأرض بجوار الصندوق تعاين ما بداخله بشغف، فابتسم وقال لها:

- أعجبك هذا؟

- جدًّا جدًّا يا تميم!

- هذه مجموعتي الخاصة من القصص التي أحتفظ بها منذ الطفولة؛ في أواخر الثمانينيات كان أبي يصحبني إلى مكتبة دار المعارف بوسط القاهرة،

ليشتري لي القصص المصورة لتان تان وأستريكس وشخصيات ديزني، باللغات الفرنسية والإنجليزية ليساعدني على تعلم اللغات وإتقانها، ولنفس السبب أيضًا ألحقني بمدرسة فرنسية.

- هذا شيء جميل.

ثم انتبهَت كلارا لثلاثة مجلدات في قاع الصندوق، فأخرجَت أحدها لتسأله:

- وماذا عن هذه المجلدات الكبيرة القديمة؟

- هذه مجلات ميكي التي كنت أشتريها في التسعينيات من كشك الجرائد المجاور للمنزل، جمعها لي والدي في مجلدات حفاظًا عليها.

ففرَّت أوراقه سريعًا ثم وضعته جانبًا واستخرجت المجلدين الآخرين وأمسكت بأحدهما وسألته:

- ولماذا يبدو هذا المجلد أقدم من غيره؟ فصفحاته صفراء وتنبعث منها هذه الرائحة المميزة؟

- هذا كنز ثمين من نفس المجلات لكنها أقدم كثيرًا، يرجع تاريخها إلى عام 1973، وجدتها في متجر الأنتيكات الخاص بجدِّي لأمي، والذي لم أزره إلا في هذا اليوم الذي بيع فيه. كنت أبلغ من العمر تسع سنوات، وبسؤال أمي عرفت أنها كانت تخصها حينما كانت فتاة صغيرة؛ كانت تشتريها وتقرأها في متجر جدِّي عندما تذهب معه إلى هناك وتتركها حتى تجمَّع منها عدد كبير. في هذا اليوم التقطها والدي من الأرض ونفخ عنها التراب، ثم نسَّقها وجمعها في هذا المجلد المقوَّى ليحفظها. كان لهذا المجلد سحر ومتعة خاصة في القراءة دونَ غيره.

- والدك هذا رائع، أنا أحبه.

- أشكرك حبيبتي.

نبشت كلارا في الصندوق، فاستخرجت مجموعة أخرى من القصص المصورة القديمة لباتمان وسوبرمان والرجل العنكبوت والرجل الأخضر، فبادرها تميم بالقول:

- لا أحبها كثيرًا، ولكنها خاصة بابن عمي عاصم الذي كان يعشقهم بجنون ولا يزال. كانت تدور بيننا الخلافات بين أفضلية سوبرمان وسوبر جوفي! في يوم من أيام الطفولة كنت أجلس معه في غرفته أنتظر مجيء أبي ليعود بي إلى المنزل، فأخذت منه هذه المجلات معي لأقرأها وأعيدها له في الزيارة التالية، يبدو أني لم أعدها حتى اليوم! لو علم بهذا الأمر سيقتلني. ناوليني هاتفي المحمول من على الكرسي بجوارك، سأصورها ثم أرسلها له على الإيميل، فهو في السعودية الآن.

- أنت مستفز هههههههههه.

- جدًّا!

- لكن تعرف، والدتي لا تحب أبدًا هؤلاء الأبطال الخارقين، وكانت تذكرلي أن مجلات الكوميكس الخاصة بهم كانت في بداية ظهورها تستخدم في البروباجاندا الإعلامية وقت الحرب العالمية الثانية ثم الحرب الباردة ضد أعداء أمريكا من الألمان والسوفييت، وكان لها أثر كبير في رفع معنويات الجنود الأمريكان في مواقع الاشتباك وعلى الحدود.

- مارجاريتا متحفظة على كل شيء، والمؤامرة تستحوذ على تفكيرها بشكل كبير.

- وماذا في ذلك يا تميم؟ إن كانت هي نفسها تفعل نفس الشيء في

رسمها لقصص الأطفال وغرس ما تراه مناسبًا لهم؟ افتح لي جوجل على اللابتوب.

- حسنًا، لكن ما رأيك بعد تناول الإفطار؟

- نعم؛ بالتأكيد، فأنا أيضًا جائعة جدًّا وأعددت لك إفطارًا شهيًّا في المطبخ قبل أن تستيقظ؛ والدتك لم تترك شيئًا نحتاج له إلا ملأت به الثلاجة قبل قدومنا، أنا أحبها كثيراً.

- وهي أيضًا تحبك جدًّا وتوصيني بكِ وبوالدتك خيراً.

بعد تناولهما إفطارًا من البيض المسلوق والجبن والخضروات الطازجة والمربى والزبد وخبز التوست المحمص، أدَّى تميم صلاة الظهر، ثم جلسا ليتناولا النيسكافيه معًا أمام اللابتوب. كتبت كلارا على جوجل Comics Propaganda، ثم فتحت قسم الصور، لتظهر لهما صور كثيرة لأغلفة قديمة لمجلات مارفلMarvel ودي سي كوميكس DC Comics، من ضمنها صورة لكابتن أمريكا وهو يسدد اللكمات لهتلر، وصورة أخرى لفريق العدالة وهم يتصدَّوْن لوحش سوفييتي. فقال لها تميم:

- يبدو أن الأمر شيقًا، وليس على غرار مؤامرات مارجاريتا اليهودية العالمية التي أكثرت في الحديث عنها ونحن في موسكو. بالمناسبة كيف حالها لقد افتقدتها كثيراً بحق؟ هل اطمأننت عليها؟

***

تمُر الشهور على مارجاريتا وتزداد حالتها بأسًا؛ يشتد عليها ألم الوحدة والفراق كما تشتد آلام مرضها بالغُدَّة، ويكاد الاكتئاب يؤدي بها للانتحار. لم تعد تقدر على الكتمان، ولم تستطع الثبات على موقفها أكثر من ذلك. فصارحت ابنتها في آخر محادثة برغبتها في الانتقال إلى العيش بجوارها،

فطـارت كلارا فرحًـا بقرارهـا، فأخـيراً سـتتحقق الأمـاني ويجتمـع الشـمل بعـد فـراق أليـم.

تحولـت غرفـة المعيشـة إلى غرفـة خاصـة بمارجاريتهـا، والتـي لم تمكـث كثـيراً في القاهـرة حتـى وجـدت فرصـة عمـل مناسـبة كمعلمـة للغـة الروسـية بالمركـز الثقـافي الـروسي، الأمـر الـذي رفـع كثـيراً مـن معنوياتهـا وأعـاد لهـا نشـاطها وحيوتهـا وضحكتهـا، ورفـع عنهـا الحـرج مـن تحميـل تميـم فـوق طاقتـه، رغـم مبالغتـه في الكـرم وعـدم إظهـاره لأي شـكوى أو ضجـر. لم تتمـنَّ مارجاريتـا مـن الدنيـا بعـد ذلـك سـوى رؤيـة أحفادهـا.



القاهرة، السبت 17 مايو 2014

مـرت سـبع سـنوات عـلى زواج تميـم بـكلارا، تعلَّمَـت فيهـا اللغـة العربيـة، وعملـت مدربـة جـودو محترفـة في أحـد النـوادي الخاصـة، وأشـهرت إسـلامها في العـام الأخـير، بعـد طـول بحـث وقـراءة ودعـاء لبارئهـا. كانـت موضوعيـة ومتجـردة في تفكيرهـا، رفضـت التأثـر بسـلبيات المجتمـع مـن حولهـا أو الانصيـاع لأي حمـلات تشـويه. تحفظـت مارجاريتـا عـلى اسـتحياء مـن قـرار ابنتهـا ولكـن لم تعـترض بشـكلٍ صريـح. خاصـة وأن كلارا كانـت بـارَّة بهـا، وهـذا القـرار المصـيري لم يغـير في سـلوكها تجـاه مارجاريتـا بـل زادهـا بـرًّا وتقديـرًا. إضافـة إلى أن كلارا لم تغـيِّر اسـمها أو اسـم والدهـا حفاظًـا عـلى مشـاعر والدتهـا المحبـة لـه الحزينـة عـلى فراقـه، فظلـت كـما هـي: كلارا فيكتـور.

لم يُـرزَق تميـم وكلارا بمولـود حتـى اللحظـة. عـلى مـدار السـنين توالـت محـاولات لا تكتمـل فرحتهـا، آخرهـا مـا كشـف عنـه الطبيـب عـلى جهـاز السـونار ولم يسـتمع إلى نبـض للجنـين في الموعـد الطبيعـي، فطلـب منهـما إجـراء أشـعة رباعيـة الأبعـاد 4D لتكـون أكـثر دقـة، فكشـفت الأشـعة عـن تشـوه بالجنـين وأمـلٍ ضعيـف في إتمـام الحمـل. فنصحهـا الطبيـب بالإجهـاض واسـتجابت لـه، وأمضـت يومًـا أليـمًا في المستشـفى. بعدمـا أفاقـت في غرفتهـا

وجدت تميمًا ومارجاريتا يجلسان بجوارها على وجهيهما الوجوم الشديد، فور أن فتحت عينيها قاما إليها وقبَّل تميم يدها وضمها برفق والدموع تغمر عينيه. فبادلته النظرة بنظرة حزينة كأنها تقول له «أنا السبب».

بعد المغادرة في اليوم التالي والعودة إلى المنزل، سألته كلارا في الليل قبل النوم:

- هل أنت نادم على الزواج مني؟

- قطعًا لا يا حبيبتي، فكل شيء بقضاء الله، وقدره كله خير.

- لا أستطيع أن ألومَك، فأنت بالتأكيد تشتاق إلى الذرية، لكن هذه إرادة الله، لقد صرت متيقنة بعد كل هذه المحاولات أن شبح تشيرنوبل قد مسني بسوء ولم يرحم ضعفي أو صغر سني.

- لا تشغلي بالك بهذا، فصحيح أنِّي أشتاق إلى الذرية، ولكني أحبك وأشتاق إليك أكثر.

- بالله يا تميم؟

- نعم؛ بالله يا كلارا.

- أنا ممتنة كثيراً لك يا حبيبي، أنت بحق إنسان طيب وصالح.

- بل أنت يا حبيبتي التي تستحقين كل الحب والشكر والتقدير.

بابتسامة سخرية أردفت كلارا قائلة:

- كانت محقة تمامًا الكاتبة سفيتلانا فيكتوريفيتش، حينما وصفتنا في كتابها «صلاة تشيرنوبل» أن الكارثة قد حولتنا إلى «شعب تشيرنوبل»، تمامًا كالحيوانات النادر والمثيرة للاهتمام والذعر... أشعر أني متعبة جدًّا وفي حاجة إلى النوم.

- بالتأكيـد يـا حبيبتـي، لابـد وأن تَحصُـلي عـلى قسـطٍ وافـرٍ مـن الراحـة. أعـدك بمجـرد اسـتلام السـيارة مـن ورشـة الميكانيـكي أن نسـافر يومـين إلى شـاليه العائلـة في العـين السـخنة للاسـتجمام.

- حقًّـا؟! كـم أنـا سـعيدة بهـذا الخـبر، فأنـا في أشـد الحاجـة لهـذه الرحلـة، أشـكرك يـا تميـم.

- تشـكرينني؟! أبـدًا يـا حبيبتـي، وعـلامَ الشـكر؟! لـولا هـذا العطـل المفاجئ الـذي أصـاب المحـرك أول أمـس لذهبنـا غـدًا، لكـن قـدر اللـه ومـا شـاء فعـل. هيـا تصبحـين عـلى خـير.

- وأنت من أهل الخير يا تميم.

أدار تميـم ظهـره لـكلارا وأمسـك هاتفـه المحمـول ليتصفـح الفيسـبوك حتـى ينـام، فوجـد أحـد أصدقائـه يكتـب نعيًـا بوفـاة صديـق الدراسـة وليـد قبـل حـوالي سـاعة بسـبب حـادث سـير بالإسـكندرية، وأن صـلاة الجنـازة سـتقام غـدًا بعـد صـلاة العـصر في مسـجد الحـصري بأكتوبـر بجـوار محـل سـكنه. أصابـه الخـبر بالصدمـة والحـزن الشـديد؛ فـكان وليـد مـن أفضـل النـاس سـيرة وخُلُقًـا وقـد قـذف اللـه في قلـوب النـاس محبتـه. اسـترجع تميـم ودعـا اللـه لـه بالرحمـة والمغفـرة ولأهلـه بالصـبر والسـلوان، انتبهـت كلارا لتمتمتـه فسـألته:

- خيراً يا تميم؟ ماذا بك؟

- صديق عزيز لي توفي منذ ساعات، وستُصَلَّى عليه الجنازة غدًا العصر.

- يا الله! اغفر له وارحمه يا رب.

- آمـين يـا رب. سـأنصرف غـدًا مبكـرًا مـن العمـل لألحـق بالجنازة، وسـأتأخر عليـك قليلًا في المسـاء.

- وهو كذلك، هوِّن عليك يا حبيبي.

- الحمد لله على كل حال، ولا نقول إلا ما يرضي ربنا.

***

في عصر اليوم التالي كان المسجد مكتظًا لآخره بالمصلين، في مشهد لا يراه تميم إلا في صلاة الجمعة والتراويح، فسُرَّ لذلك وانشرح صدره وقال:

- سبحان الله، تلك عاجل بشرى المؤمن بإذن الله، اللهم أحسن ختامنا والمسلمين.

بعد أداء صلاة الجنازة والسلام، لمح عن شماله صديقًا قديمًا يعرفه جيدًا، فقام إليه:

- سليمان!

- تميم!

- ياه أنا لا أصدق! كيف حالك يا سليمان؟

- بخير الحمد لله، كيف حالك أنت؟ أفتقدك كثيرًا يا صديقي، لم نلتقِ منذ سنين طويلة، منذ زواجك تقريبًا.

- صحيح، الدنيا شغلتنا، أنت تعرف وليدًا؟

- نعم؛ هو صديقي وجاري من المعادي قبل أن يتزوج وينتقل للعيش في أكتوبر.

- رحمة الله عليه، كان من خير الناس.

- نعم؛ صحيح، كان يمشي بين الناس بالخير وكان الكل يحبه، رحمه الله وتقبله وأدخله فسيح جناته.

- آمين يا رب العالمين.

- إلى أين أنت متجه يا تميم، هل معك سيارة؟

- لقد انصرفت اليوم مبكرًا من العمل لألحق بالجنازة، وسأعود الآن إلى المنزل. السيارة ليست معي للأسف؛ في الحرفيين منذ يومين، كانت بحاجة إلى الماء ولم أنتبه لذلك، فمع التكييف وزحام المرور وحرارة الجو، ارتفت حرارة السيارة بشدة وأصابت وش السيلندر. الحمد لله على كل حال. لكن لا تشغل بالك، المواصلات من هنا سهلة.

- ولماذا المواصلات؟ تعال معي فإني ذاهب إلى مشوار في وسط البلد، سأوصلك إلى رمسيس لو يناسبك؟ ولو انتظرت معي نصف ساعة أخرى لأنتهي من المشوار سأوصلك إلى المنزل. دعنا نتحدث قليلًا يا صديقي.

- رمسيس مناسب جدًا، فلن أستطيع أن أطيل أكثر من ذلك للأسف، فزوجتي أجهضت منذ أيام وهي متعبة في المنزل.

- لا حول ولا قوة إلا بالله، سلَّمها الله من كل سوء، وأخلف عليكما بالخير.

- آمين يا رب. صحيح، مبارك عليك الزواج، ألمح الخاتم في يدك.

- نعم؛ الحمد لله منذ أربع سنوات، ومعي الآن سلمى تتم الثلاث سنوات الشهر القادم بإذن الله.

- ما شاء الله، بارك الله فيها وحفظها وجعلها من الصالحات.

- آمين يا رب العالمين.

على بعد خطوات من المسجد، كانت سيارة سليمان تنتظر تحت أشعة الشمس الملتهبة:

- اركب يا تميم.

- يـا إلهـي! كيـف تطيـق هـذا الفـرش الجلـدي الأسـود في هـذا الجـو الحـارق! أشـعر وكأني دخلـت الشـواية.

- هـي غلطـة حقًّـا أنـا نـادم عليهـا بشـدة! لكـن لا بـأس، الآن سـيعمل مكيـف الهـواء وكل شيء سيكون عـلى مـا يـرام. صحيـح! لم تقُـل لي؛ أيـن كـ... عـذرًا تميـم، لحظـات أجيـب عـلى الهاتـف. سـبحان اللـه! تخيـل مـن المتصـل؟

- من؟

- انظر.

- معقول! ماجد سمير! لا زلتما على تواصل؟

- نعـم؛ أكيـد، ونعمـل معًـا في مـشروع خـاص، خـذ أنـت الهاتـف رد عليـه، فاجئه.

- ألو يا سئيل.

- سئيل! من معي؟ سليمان؟ الصوت مختلف؟

- لا أنا لست سليمان، أنا صديقك أنت وسليمان، ركز في الصوت قليلًا.

- من؟ تميم؟!

- نعم؛ تميم.

- لا والله! هههههههههه صديقي العزيز كيف حالك؟

- في خـير حـال الحمـد للـه، اليـوم هـو يـوم المفاجـآت؛ ألتقـي سـليمان مصادفـة ثـم أسـمع صوتـك الآن! هـل هـذا طبيعـي؟

- سـبحان اللـه حقًّـا، أنـا سـعيد جـدًّا بهـذا، ضروري أن نتقابـل نحـن الثلاثـة لنسـتعيد الذكريات.

- هـذا وعـدٌ أكيـد بـإذن اللـه، سأنسـق مـع سـليمان ونتفـق عـلى أقـرب وقـت.

- اتفقنـا يـا صديقـي، في انتظـار تحديـد الموعـد. وأقـول لـك، بلِّـغ سـليمان بـأني قـد جـاءني هاتـف مهـم الآن عـلى الانتظـار، فسـآخذه وليتصـل بي هـو لاحقًـا حتـى لا أقطـع عليكـما الحديـث. أراك عـلى خـير يـا تميـم، «بـاكا».

- بـاكا!... يـاه يـا سـليمان، مسـتفز كـما هـو! كـم هـي الدنيـا الصغـيرة، لكـن قـل لي، فيـمَ تعمـلان معًـا؟

- ما هذه الباكا التي قلتها له للتو؟

- بـاكا تعنـي مـع السـلامة بالروسـية، قالهـا لي وأردهـا لـه. ماجـد يسـتظرف كعادته.

- هههههههههـه عجيـب رغـم أنـه لا يفعـل معـي هكـذا! لعـل هـذا زيـادة في الحـب منـه. مـاذا نفعـل معًـا؟ مـشروع بوابـة إلكترونيـة نعمـل على تدشـينها أنـا ومجموعـة مـن الزمـلاء ويقـوم هـو بالتسـويق لـه.

- تسويق؟ ألم يكن مهندسًا مدنيًّا؟

- نعـم؛ ولكنـه تـرك الهندسـة وتخصـص في مجـال التسـويق الإلكـتروني، ويبـاشر عـددًا مـن المشـاريع الناجحـة في الشركـة التـي يعمـل بهـا حاليًـا، ويسـعى في تأسـيس شركتـه الخاصـة، وفي إتمـام ماجيسـتير إدارة الأعـمال MBA.

- جميـل مـا شـاء اللـه، لكـن لمـاذا اخـترت الصحافـة الإلكترونيـة ولم تعمـل بـأي مـن الصحـف والمجـلات المعروفـة؟

- أنـا بالفعـل أعمـل كمراسـل لبعـض الصحـف، وهـذا مـشروع خـاص وعمـل إضـافي. كـما تعلـم العـالم يتوجـه اليـوم بقـوة صـوب الإعـلام الرقمـي،

فهو أسهل في الوصول إلى الجمهور وإلى الشباب بوجه أخص، والذي عزف الكثير منه عن الوسائل التقليدية التي تهيمن عليها الأجيال القديمة، إلى مواقع التواصل الاجتماعي والعالم الافتراضي الذي يشكله كل فرد بطريقته، ويضع له قوانينه وضوابطه الخاصة، ويشعر فيه بقوته وحريته. كما أن وسائل التسويق في هذا العالم الرقمي كثيرة ومتنوعة، وفيها الغِنَى عن عناء توزيع وتحصيل ثمن المنتج الورقي وما بينهما من عوائق وعراقيل كثيرة وروتين.

- صحيح، أنت محقٌّ في ذلك. ما هو اسم المشروع؟

- اخترنا له اسم «الرأي والخبر».

- اختيار لطيف، لكن لماذا؟

- لأن هناك خلطًا في المفهوم عند كثير من الناس بين الرأي والخبر؛ فإبداء الرأي لا يشترط فيه الحياد، أما نقل الخبر فيُشترط فيه الحِياد والتجرد والتحقق من المنقول. لا يوجد في قاموس الإعلام ما يُعرف بـ «الإعلام المحايد» أو غير المؤدلج، وهذا ليس عيبًا في ذاته؛ لأن وسائل الإعلام المختلفة هي الآلة التي يَستخدمها صاحب الرسالة أو التوجُّه والأيديولوجيا لنشر أفكاره أيًّا كانت. مثل هذه المبادئ العامة لا تطبق للأسف في كثير من الأخبار المنقولة والعناوين البراقة التي لا يتورع أصحابها عن نشرها بغرض التشنيع من فلان أو علّان. ولذلك، كمحاولة للتوعية بهذا المفهوم، أردنا أن نبرزه كعنوان للمشروع.

- جميل، وما أقسام هذا المشروع.

- أقسام البوابة عديدة ومتنوعة؛ فهي بوابة إخبارية، اجتماعية، ثقافية، سياسية، صحية، دينية، فنية، نسائية، وبها قسم خاص للأم والطفل.

- جميل ما شاء الله. قفز إلى ذهني أمر الآن أعرضه عليك، فقد يكون إضافة مميزة.

- ممتاز، وما هو؟

- هل لديكم قسم خاص بالكاريكاتير؟

- حتى الآن لا، ولكنه في الخطة.

- أعرف رسامة كاريكاتير محترفة كانت تعمل في مجلة أجنبية كبيرة وخبرتها تزيد عن الثلاثين عامًا.

- حقًّا؟ هذا رائع، لكن مؤكد أنها ستطلب أجرًا كبيرًا.

- لا، لا تقلق من هذا.

- من تكون هي؟

- مارجاريتا، حماتي.

- حقًّا؟!

- نعم؛ إنها رسامة كاريكاتير مخضرمة، وتعيش معنا في مصر منذ قرابة 6 سنوات ولها إلمام جيد بالشأن الداخلي والخارجي.

- ممتاز ممتاز، ليتها توافق أن تشاركنا هذا المشروع المتواضع، ستكون إضافة قوية!

- سأعرض عليها الأمر وأحاول إقناعها بإذن الله. لكن للأمانة؛ ربما تختلفون قليلًا في نظرتكم لبعض الأمور، فهي لها أفكار غريبة بعض الشيء، وتؤمن كثيرًا بالمؤامرات الكونية والأيادي الخفية والخطر اليهودي العالمي وما إلى ذلك، والأمر يأخذ كثيرًا من حيز تفكيرها ونظرتها للأمور، ومن خلال معرفتي بك أنك على العكس من ذلك تمامًا.

- بالفعل، مع كامل احترامي لحماتك الفاضلة، أنا لا أطيق مثل هذه الأفكار كما تعرف، بل وأعتبرها كسلًا فكريًّا. ومسألة، على سبيل المثال، كمسألة المؤامرة اليهودية الكونية وبروتوكولات حكماء صهيون، قطعت فيها شوطًا من البحث وراء حقيقتها، وتوصلت في النهاية إلى أنها مزيفة.

- مزيفة؟! هكذا قولًا واحدًا؟

- نعم؛ مزيفة، ومنتحلة من كتاب فرنسي قديم اسمه «حوار في الجحيم بين مكيافيللي ومونتيسكيو» لصحفي يدعى موريس جولي، طبع في جنيف عام 1864، وفيه ينتقد جولي نظام نابليون الثالث، وكتبه بأسلوب ساخر في صورة خمسة وعشرين حوارًا دار بين روح كل من نيكولو مكيافيللي وشارلز مونتيسكيو، وفيه يمثل مونتيسكيو التيار الليبرالي في حين يمثل مكيافيللي الطغيان والاستبداد. وبسبب تأليف جولي للكتاب تم اعتقاله من قبل شرطة نابليون الثالث وحكم عليه بالسجن لمدة خمسة عشر شهرًا، وبغرامة مالية قدرها مئتا فرانك، وصادرت الشرطة ما توصلت إليه من نسخ، وحظرت طباعة أو نشر الكتاب، حتى عام 1933.

- عجيب! وكيف تم هذا التزوير؟ فلقد قرأت مقدمة الكتاب، والتي قال فيها سرجي نيلوس أنها وقعت في حوزته بعدما سرقت سيدة فرنسية النسخة الأصلية منها من أحد أوكار الماسونية في فرنسا.

- لقد قرأت هذا بالطبع، ولكن هذا الكلام يطول الحديث فيه، لا أظن يتوفر لنا وقت الآن، فقد وصلنا إلى ميدان الإسعاف. فلعلنا نتحدث في وقت لاحق، وستكون فرصة طيبة لأن نلتقي مرة أخرى عن قريب. في كل الأحوال سأرسل لك على الإيميل بعض نصوص الكتاب الذي ذكرته لك

عندما أصل إلى المنزل بإذن الله. اكتب لي عنوان الإيميل في رسالة. لا زلت أحتفظ برقم هاتفك القديم، هل غيرته؟

- لا، هو نفسه لم أغيره. ها قد أرسلت لك العنوان وسأنتظر رسالتك.

- أكيد بإذن الله.

- لم أشعر بالوقت، الحديث كان شيقًا. أحب كثيراً مثل هذه المناقشات وأفتقدها مع باقي الأصدقاء.

- وأنا كذلك، ليتنا نتقابل قريبًا ويكون ماجد معنا، نرتِّب لذلك بإذن الله. أين تود النزول؟

- ممكن عند مسجد الفتح.

- نعم؛ لحظات لأقف بالسيارة على جانب الطريق، هيا في أمان الله، ولا تنسَ وليدًا في دعائك.

- بالتأكيد، شكرًا يا صديقي، إلى لقاء قريب.

***

عاد تميم إلى بيته، فدخل وسلَّم على مارجاريتا التي كانت تقف في المطبخ تغسل بعض الأكواب، ثم دخل إلى الغرفة ليطمئن على كلارا فوجدها نائمة. فغيَّر ملابسه وخرج إلى الصالة ليصلي المغرب. سألته مارجاريتا لو يريدها أن تعد له الطعام، لأنها وكلارا أكلتا، فاستأذنها وشكرها لذلك. تناول طعامه وجلس ليشاهد التلفاز قليلًا مع مارجاريتا، حتى أذَّن العشاء فقام ليصلي وينام قليلًا بعد هذا اليوم الشاق.

عندما استيقظ في الحادية عشرة من المساء، كانت كلارا لا تزال نائمة، ومارجاريتا قد خلدت إلى النوم. فدخل المطبخ ليستفيق بكوبٍ من الشاي،

فأعدَّه وخرج به إلى الصالة، ودخل إلى الغرفة في هدوء ليحضر اللابتوب.

كان قد تبقَّى له ساعة في فيلم Argo لم يشاهدها بعدُ، كانت فرصة لاستكمالها، لكنه كالعادة لم يستطع في البداية الامتناع عن إلقاء نظرة «سريعة» على الفيسبوك. فوجد طلب صداقة مرسلًا له من سليمان، ومعه رسالة على الخاص بأن يراجع الإيميل.

قبِل الطلب، ثم فتح الإيميل على الفور. فوجد رسالة من سليمان بدون عنوان، فتحها فوجد فيها ملف وورد Word، فحمَّله في ثوان ثم فتحه ليجد فيه فقرات من بروتوكولات حكماء صهيون وأسفل منها فقرات من كتاب موريس جولي. وفي نفس الإيميل مرفق ملف ثان لنسخة إلكترونية من كتاب موريس جولي، وملف ثالث للبروتوكولات باللغة العربية.

بدأ في قراءة الملف الوورد فوجد فيه ثلاثة أمثلة، قسَّمها سليمان على النحو التالي:

جاء في البروتوكول الأول: «يجب أن يلاحظ أن ذوي الطبائع الفاسدة من الناس أكثر عددًا من ذوي الطبائع النبيلة... ماذا كبح الوحوش المفترسة، التي نسميها الناس، عن الافتراس؟ وماذا حكمها حتى الآن؟ لقد خضعوا في الطور الأول من الحياة الاجتماعية للقوة الوحشية العمياء، ثم خضعوا للقانون».

وجاء في الحوار الأول على لسان مكيافيللي: «إن الطبائع الفاسدة في الإنسان هي الغالبة على الطبائع النبيلة... من يكبح هذه الوحوش المفترسة التي نسميها بشرًا عن أن تتصارع فيما بينها؟ في بداية نشأة المجتمعات كانت القوة الغاشمة المطلقة، ثم بعد ذلك كان القانون».

وهذا هو نص ما جاء في الحوار الأول:

«L›instinct mauvais chez l›homme est plus puissant que le bon… Qui contient entre eux ces animaux dévorants qu›on appelle les hommes? A l›origine des sociétés, c›est la force brutale et sans frein; plus tard, c›est la loi».

جاء في البروتوكول الثاني عشر: «ستكون لنا جرائد شتى تؤيد الطوائف المختلفة: من أرستقراطية وجمهورية، وثورية، بل فوضوية أيضًا... وستكون هذه الجرائد مثل الإله الهندي فشنو، لها مئات الأيدي، وكل يد ستجس نبض الرأي العام المتقلب».

وجاء في الحوار الثاني عشر على لسان مكيافيللي: «مثل الإله فشنو، سيكون لصحافتي مئة ذراع، وسوف تمد هذه الأذرع يد العون لكل الآراء المختلفة الموجودة على الساحة في البلاد مهما كانت».

وهذا هو نص ما جاء في الحوار الثاني عشر:

«Comme le dieu Wishnou, ma presse aura cent bras, et ces bras donneront la main à toutes les nuances d›opinion quelconque sur la surface entière du pays».

جاء في البروتوكول العشرين: «القرض هو إصدار أوراق حكومية توجب التزام دفع فائدة تبلغ نسبة مئوية من المبلغ الكلي للمال المقترض. فإذا كان القرض بفائدة قدرها خمسة من مئة، ففي عشرين سنة ستكون الحكومة قد دفعت بلا ضرورة مبلغًا يعادل القرض لكي تغطي النسبة المئوية. وفي أربعين سنة ستكون قد دفعت ضعفين، وفي ستين سنة ثلاثة أضعاف المقدار، ولكن القرض سيبقى ثابتًا كأنه دين لم يسدد».

وجاء في الحوار العشرين على لسان مونتيسكيو: «كيف تمارس القروض؟ تمارس عن طريق إصدار سندات مالية تحوي التزامًا من الحكومة بدفع فوائد محددة من قيمة رأس المال المدفوع. فلو كان القرض بفائدة 5% على سبيل المثال، ستكون الدولة بعد عشرين سنة قد دفعت مبلغًا يعادل رأس المال المقترض، وبعد أربعين سنة ستكون قد دفعت الضعف، وبعد ستين سنة ستكون قد دفعت ثلاثة أضعاف. ومع ذلك تبقى دائمًا مدينة بنفس قيمة رأس المال».

وهذا هو نص ما جاء في الحوار العشرين:

«Comment se font les emprunts? par des émissions de titres contenant obligation de la part du gouvernement, de servir des rentes proportionnées au capital qui lui est versé. Si l›emprunt est de 5 p. c. [%], par exemple, l›Etat, au bout de vingt ans, a payé une somme égale au capital emprunté; au bout de quarante ans une somme double; au bout de soixante ans une somme triple, et, néanmoins, il reste toujours débiteur de la totalité du même capital».

أخذ تميم يعيد قراءة الأمثلة وهو لا يصدق هذا التطابق العجيب بين النصوص، ثم ضغط على الروابط الأخرى لتحميلها ومراجعتها بنفسه فوجد الأمر كذلك. فضحك متعجبًا وقال في نفسه:

- يا ويلكِ مني يا مارجاريتا!

***

في مساء اليوم التالي جلس الثلاثة على العشاء، فقالت له مارجاريتا:

- نمت مبكرًا بالأمس.

- نعم؛ فقد كان يومًا مرهقًا فاستسلمت للنوم سريعًا. قابلت بالصدفة صديقًا قديمًا اسمه سليمان، أنت تعرفينه لكن لا أظنك تتذكرينه، فقد رأيتِه مرة واحدة فقط في أول لقاء لنا في شرم الشيخ.

- صعب أن أتذكره.

- المهم، حين التقيته بالأمس طال بنا الحديث وتطرق إلى عدة مواضيع؛ فهو صحفي بدأ منذ وقت قريب في مشروع بوابة إلكترونية إخبارية وثقافية على الإنترنت. الموقع مميز وغير تقليدي. فطرأ إلى ذهني أن أسأله عن وجود قسم خاص بالكاريكاتير ضمن أقسام الموقع، فأجابني بلا، فاقترحت عليه أن تتولي مسؤولية هذا القسم؛ كل ما عليك فعله هو إرسال رسمة كاريكاتير حصرية كل أسبوع بتوقيعك. ذكرت له أن هذا تخصصك منذ قرابة ثلاثين عامًا وأن لك فكرًا ومتابعة للشأن العام الداخلي والخارجي، وأن انضمامك لفريق العمل بالموقع سيكون مغنمًا كبيرًا وإضافة قوية. فرحب ووافق على الفور، فقط تخوف من الماديات، وأنا بعد إذنك طمأنته وقلت له لا تخف. فما رأيك؟

فضحكت وقالت له:

- وأين إذني في كل ما قلت؟

- صراحة هذا ظني بك أنك ستوافقين لعلمي بحبك لعملك. وعلى كلٍ فأنا أعتذر لو تسببت لك في إحراج والأمر بسيط لا تقلقي، أستطيع الاعتذار له بسهولة.

- أشكرك يا بني، لا أدري تحديدًا، لكن بشكل مبدئي لا أرى مانعًا في ذلك فالوقت يتسع لديَّ كما ترى، لكن هذا في حالة أن يكون العمل من المنزل، بمعنى إرسال رسمة واحدة كل أسبوع عن طريق الإيميل. يمكنك في هذه الحالة أن تدعوه لزيارتنا في يوم للتعرف به وتنسيق العمل، ولن أحرجك فيما قلت له بخصوص الأمور المادية.

- لم تخيِّبي ظني يا مارجاريتا، شكرًا لك. ذلك لتعلمي أني أعرفك تمام المعرفة.

- هههههههههه هذا مؤكد يا بني.

- تخيلي والحديث دائر بيننا ذكر لي شيئًا عجيبًا أسمعه لأول مرة.

- وما هو؟

- كان يحدثني عن مهنته كصحفي وعن المصداقية والتحقق من الأخبار ومثل هذه الأمور، ثم ضرب لي مثالًا ستستغربينه؛ قال أن بروتوكولات حكماء صهيون وثيقة مزورة ومنتحلة من كتاب قديم اسمه «حوار في الجحيم بين مكيافيللي ومونتيسكيو».

- يا ربي على كلام العقلانيين هذا الذي يتناقلونه بين الحين والآخر بلا أي دراية بواقع الأمور! ألا يدري صاحبك الصحفي المثقف المطَّلع كيف أسقط اليهود بمؤامراتهم وألاعيبهم الشيطانية الإمبراطورية في روسيا؟ ألم يقرأ عن الثورة البلشفية؟ ألا يعلم من هم زعماء الشيوعية الذين أذاقوا بلادنا وأهلنا الويلات لما يزيد عن السبعين عامًا حتى تفكك اتحادهم في 1991؟

- صراحةً لم نتطرق في الكلام لهذه المسألة، لكن يغلب على ظني أنه مطلع على هذا الأمر، ولقد أرسل لي اليوم دليل كلامه على الإيميل.

- أتدري يا تميم، ودعني أنا أحكي لك؛ فبحكم عملي كصحفية مهتمة

بالثقافـة، كان لي زميـل في روسـيا اسـمه ميخائيـل ليبيخـين، مـؤرخ لـلأدب الـروسي.

- وما قصته؟

- التقيـت بـه في المعهـد الأدبي في روسـيا في ديسـمبر عام 1999 عـلى ما أذكر، حيـث كان يعمـل أمينًـا للأرشـيف آنـذاك، ذهبـت إليـه بغـرض إجـراء حـوار صحفـي معـه، وسـؤاله عـن تواريـخ بعـض المخطوطـات بحكـم تخصصـه في المطبوعـات الروسـية الصـادرة في نهايـة القـرن التاسـع عـشر الميـلادي. تجاذبنـا أطـراف الحديـث، وكان منشـغلًا جـدًّا بدراسـة تاريخيـة حـول بروتوكـولات حكـماء صهيـون، فحـكى لي عـن حـوار قريـب أجـراه مـع صحيفـة الإكسـبريس الفرنسـية **L›Express**، ذكـر فيـه مـا تقولـه أنـت الآن وصديقـك، وزاد بـأن المؤامـرة تمـت بواسـطة أحـد عمـلاء الشرطـة الروسـية السريـة في باريـس بغـرض إيهـام القيـصر نيقـولا الثـاني بوجـود مخططـات يهوديـة سريـة تقـضي بالإطاحـة بالتيـار الـروسي الأرثوذكـسي المحافـظ، وتتسـتر وراء التيـار الليـبرالي الإصلاحـي في روسـيا. وحينـما راجـت البروتوكـولات وأثـارت القلاقـل في داخـل روسـيا، أمـر رئيـس مجلـس الـوزراء الـروسي وقتهـا بيوتـر سـتوليبن بإجـراء بعـض التحريـات السريـة حولهـا، والتـي كشـفت خيـوط المؤامـرة الباريسـية، حينهـا أخـبر سـتوليبن نيقـولا الثـاني بالأمـر، والـذي رغـم ولعـه الشـديد بهـا، أصـدر قـراره بمصـادرة نسـخ البروتوكـولات ومنـع نشرهـا في روسـيا، وقـال أن الدوافـع الطيبـة لا ينبغـي أن تدعـم بمثـل هـذه المسـالك الحقـيرة. ولكـن بعـد انـدلاع الثـورة الروسـية، التـي عرفـت بأنهـا ثـورة يهوديـة مـن الدرجـة الأولى، راجـت البروتوكـولات في أوروبـا، ثـم في أمريـكا وباقـي دول العـالم، وترجمـت إلى عـدة لغـات.

- كلام منطقي، ما الإشكال فيه؟

- أتمزح يا تميم؟ ألا ترى بنفسك كيف تنفذ هذه البروتوكولات حرفيًّا في كل ما يدور حولنا؟ ألا ترى اليهود بارزين في كل مجال وفي كل فكر شاذ؟

- يا عزيزتي، المؤامرات موجودة لا ينكرها عاقل، وهذا البروز ظاهرٌ لا تخطئه العين، ولكن له أيضًا من الأسباب الاجتماعية والتاريخية المركَّبة الكثيرة ما يكفي لتفسيره، ولكن عقلنا الإنساني بطبيعته الكسولة إن لم يجد تفسيرًا ملائمًا لواقعة ما، فإنه يميل إلى اختزالها وردِّها إلى أياد خفية تُنسَب إليها كافة التغييرات والأحداث، وهي اليد اليهودية في العادة.

- و جهة نظر.

- وماذا لو قطعت لك هذا الشك باليقين؟

- كيف؟

- لحظات وأعود لك. لماذا لا تعدِّين لنا الشاي حبيبتي كلارا؟

دخل تميم إلى غرفته وسرعان ما أحضر اللابتوب وعاد إلى مارجاريتا، فتح رسالة سليمان له على الإيميل وكتاب موريس جولي المرفق معها، وفتح مترجم جوجل، وجلس ليعرض الأدلة على مارجاريتا ويترجمها.

- حسنًا مارجاريتا ما قولك الآن؟

- وما يدريك يا عزيزي أن هذا الكتاب حقيقي وليس مزورًا من قبل أصحاب هذا الرأي بغرض إثبات صحته؟

فنظر تميم بطرف عينه إلى لكلارا التي كانت تقف خلف أمها لتقرأ الإيميل ويعلو وجهها التبسُّم من جوابها، فقال:

- معك حق ماجاريتا، معك كل الحق، أنا آسف!!

***

القاهرة، الثلاثاء 20 مايو 2014

كان يومًا طويلًا مَرَّ على تميم؛ فقد أنهى عمله في الخامسة مساءً ثم ذهب لاستلام سيارته من الحرفيين. كانت كلارا قد بدأت تسترد عافيتها، لكنها لم تستأنف عملها في تدريب الجودو بعد. اتصلت بتميم في السادسة لتطمئن عليه وتسأله عن موعد قدومه. فأجابها أنه كالمتوقَع لم يستلم السيارة على الفور، وسيضطر للانتظار في الورشة بعض الوقت لحين الانتهاء من تركيب الموتور. دخلت كلارا المطبخ لإعداد حساء البورسشت الروسي البارد كعشاء خفيف لهم، ثم دخلت لتستلقي بجوار والدتها على السرير في انتظار تميم. كانت مارجاريتها ممسكة بجهازها اللوحي (التابلت) تستمع إلى مقطوعة «كالينكا» Kalinka الفلكلورية الروسية على «يوتيوب» وتتنهد، فسألتها كلارا:

- ماذا بك يا أمي؟

- أحن إلى روسيا وأيامها يا ابنتي!

ابتسمت كلارا وربتت على يد والدتها، ثم أمسكت بهاتفها المحمول لتتصفح الفيسبوك بيدها الأخرى. بينما هما كذلك وصل كلارا على هاتفها إشعار من يوتيوب عن صدور كليب جديد على القناة الرسمية لقناة الفريق الإنجليزي بينك فلويد لمقطوعة Marooned.

فتعجبت كلارا كيف يكون الكليب جديدًا على القناة والمقطوعة صدرت منذ 20 سنة!

فتحت الإشعار، وقرأت التعريف المكتوب بداخله، فوجدته إصدارًا جديدًا للمقطوعة القديمة احتفالًا بمرور 20 عامًا على صدور ألبوم The Division Bell، الذي يعتبر أحد أيقونات الفريق الإنجليزي الشهير في مسيرته التي امتدت إلى 49 عامًا.

فاستأذنت أمها في وقف سماع الكالينكا ليشاهدا الكليب معًا:

- استمعي يا أمي لهذه المقطوعة الشجية لفرقتي المفضلة، ستعجبك أنا واثقة.

بعد دقيقتين من الاستماع أدارت كلارا عينيها نحو والدتها لتجدها مشدوهةً ودامعة العين، وفي حالة مريبة من الصمت!

خمنت كلارا ما الذي أصاب مارجاريتا بهذه الحالة، لكن لم تسألها على الفور لتتأكد منها، واستمرت في متابعة الفيديو حتى انتهى، ثم سألتها:

- خيرًا يا أمي؟!

- هل تعلمين يا ابنتي ما معنى اسم هذه المقطوعة Marooned؟

- ما معناه؟

- معناه مَن هاجر موطنه وتقطعت به السُّبُل، وترك متاعه وراء ظهره بغير أي مساعدة أو مورد... اختيار هذا المكان تحديدًا لتصوير الكليب وربطه بهذه المقطوعة فيه من البراعة والعبقرية ما أشعرني بصدمة وخوف لا أستطيع أن أصفهما لكِ.

- هل لأن الاختيار وقع على بريبيات؟

- نعم كلارا؛ لأنها بريبيات.

***

عـاد تميـم إلى المنـزل في التاسـعة. فدخـل وسـلَّم، ولاحـظ حالـة الوجـوم على وجهيهـما، فاطـمأن أنهـما بخـير بـدون معرفـة تفاصيـل، وغـيَّر ملابسـه وتنـاول معهـما الحسـاء البـارد الـذي ينـدم بسـببه عـلى شـوربة العـدس التـي كانـت تعدهـا والدتـه وكان يسـخط عليهـا. ثـم دخـل إلى الغرفـة، ولحقـت بـه كلارا بعـد عـشر دقائـق، فسـألها قبـل أن يخلـد إلى النـوم:

- ماذا حدث كلارا؟

- أبـدًا يـا حبيبـي لا تنزعـج، هـو فقـط أمـر يطـول شرحـه وكلانـا الآن مجهـد، سـأخبرك بعـد غـد الخميـس حينـما تنفـذ وعـدك لي.

- وما هو وعدي؟

- ألم تعـدني بالذهـاب إلى مـكان جديـد هـذا الخميـس؟ نفـذ وعـدك لي وسـأحكي لـك حينهـا.

- فابتسم تميم، وقال لها: حسنًا، فقط أرجو ألا أغتم بما سأسمع.

- أبدًا يا تميم، أعدك ألَّا أعكر لك صفو اليوم بإذن الله.

- متفقان.



القاهرة، الخميس 22 مايو 2014

كان تميم قد نوى أن يصطحب كلارا نهاية هذا الأسبوع إلى الفرع الجديد من مقهى باول Paul الفرنسي المفضل لهما، والذي تم افتتاحه هذا الشهر في الكوربة بمصر الجديدة.

يفتح تميم الباب لكلارا فتنبعث رائحة الإسبريسو الزكية من المكان المكيَّف هواؤه، فيستقبله النادل بابتسامة لطيفة ويسأله:

- مدخن أم غير مدخن؟

- غير مدخن.

فيتأمل النادل للحظات في المكان، ثم يشير إلى طاولة في جهة اليمين، فيجلسان، ثم يسأل تميم زوجته:

- ماذا أطلب لكِ حبيبتي؟

- سآخذ الليلة كابتشينو مع أي حلوى ترشحها لي.

قام تميم إلى ثلاجة الحلوى ليرى المتاح فيها، ثم عاد إلى الطاولة ونادى للنادل:

- أستأذنك في 2 كابتشينو بحليب كامل الدسم مع قطعة من الإكلير

بكريمة الفستق، وقطعة أخرى بكريمة القهوة، وقطعة من كعكة الدارك فورِسْت، وزجاجة مياه باردة.

ينصرف النادل، فيبتسم تميم إلى كلارا ليسألها:

- حسنًا يا حبيبتي، ها قد نفذت وعدي، ألا تخبريني الآن ماذا دار بينك وبين مارجاريتا أول أمس؟

- نعم؛ أكيد، كل ما في الأمر هو أن مارجاريتا تشتاق إلى زيارة روسيا.

- أهذا فقط؟!

- بالتأكيد لا، لكن دار بخاطري ليلتها أمر آخر.

- وما هو إذن؟

فحكَت له الموقف والحوار الذي دار بينهما، وفتحت له اليوتيوب ليشاهد الفيديو، ثم قالت:

- ما رأيك أن نأخذ إجازة ونذهب في رحلة إلى روسيا؟

- روسيا؟! هذا اقتراح مفاجئ يحتاج إلى ترتيب ومراجعة حسابات، لكن لا بأس، فكرة جيدة، حتى نسترجع أيامنا الحلوة.

- رائع، ما رأيك إذن في الذهاب من روسيا في رحلة إلى بريبيات.

- بريبيات! أهذا معقول؟ كيف؟!

- نعم؛ معقول؛ فلقد لفت نظري في الكليب بخلاف الإسقاط العميق فيه، فكرة إتاحة التصوير في المكان. فأمضيت ليلتي أبحث على جوجل عن بيربيات، فظهر لي ضمن نتائج البحث صور ومقاطع فيديو لزيارات سياحية تمت للمدينة ولمفاعل تشيرنوبل قام الهواة بتصويرها، فبحثت عن الزيارة لبريبيات، وتبين لي أن هذا أحد مجالات السياحة المتاحة

للجمهور منذ بضع سنوات، تحت مسمى سياحة المخاطرة، أو السياحة المظلمة Dark Tourism، ووجدت عددًا من المواقع التي تنظم هذه الرحلات وإمكان الحجز من خلالها والدفع ببطاقة الائتمان، مثل هذا الموقع: https://chernobyl-tour.com. ما رأيك في أن نسافر في رحلة إلى موسكو بالترتيب مع مارجاريتا، ثم نفاجئها هناك برحلة إلى بريبيات؟

- فكرة جميلة حقًّا، أوافقك عليها.

- صحيح؟! أنا سعيدة جدًّا بذلك يا تميم، وأشكرك شكرًا جزيلًا.

- الشكر على ماذا يا حبيبتي، لا تقولي هذا بالطبع.

- متى يمكننا الحجز للاستعداد للرحلة؟

- كما أكدتُ لكِ كلارا أني أوافقك، لكن التوقيت يصعب عليَّ تحديده الآن؛ فما يظهر لي أن الظروف غير ملائمة في هذه الفترة للأسباب التي تعرفينها، ومصاريف هذه الرحلة ستكون باهظة، والأمر لم يعد كما كان منذ سبع سنوات. فقط أعطيني الوقت الكافي لأرتب أموري في المصاريف وظروف العمل، ثم أوافيك بالموعد المناسب للرحلة لنعرضه على مارجاريتا، اتفقنا؟

- اتفقنا، أحبك.

- وأنا أحبك كلارا

- سأقوم سريعًا إلى الحمَّام.

- حسنًا يا حبيبتي، وأنا سأقوم بعدك، تأثير القهوة ههههههههه!

أمسك تميم بهاتفه المحمول ليتصفح الفيسبوك حتى تعود كلارا، فوجد رسالة على الإنبوكس مرسلة منذ ساعة، فتحها فوجدها من سليمان وقد جمعَهُ وماجدًا فيها، وكتَب:

- ألم نتفق على أن نلتقي قريبًا أيها الأندال؟

وقد أجابه ماجد في حينها وكتَب:

- أنا مستعد تمامًا لذلك فور عودتي من الساحل الأسبوع القادم.

فكتب سليمان:

- ممتاز، لننتظر رد تميم، أرجو ألا يتجاهلنا كالعادة.

فضحك تميم وكتب لهما:

- أنا مستعد بإذن الله، لكن كما هو الحال مع ماجد، ليس قبل الأسبوع القادم؛ فوالدي مريض وأنا مضغوط جدًّا في البيت والعمل بسبب ذلك.

فأجابه سليمان:

- شفاه الله وعافاه وأعانكم الله. حسنًا إذن نجدد الاتفاق بعد أسبوع بإذن الله.

كان ماجد حاضرا المحادثة فكتب على الفور:

- ألف سلامة على عمي عثمان... عندي اقتراح إذن؛ لماذا لا نلتقي يوم افتتاح كأس العالم، ونشاهد المباراة في أي مقهى نتفق عليه؟

فأجاب سليمان:

- هذا اقتراح لطيف رغم أنه بعيد، أنا موافق.

فكتب تميم:

- وأنا أيضًا موافق بإذن الله.

سرعان ما انتبه أن كلارا تقف خلفه تطلع على المحادثة، فأدار رأسه لها وقال بنبرة قلق:

- خيراً يا حبيبتي.

فسألته:

- مع من تتحدث.

- هؤلاء أصدقائي القدامى؛ سليمان وماجد لو تذكرينهما.

- مممم حسنًا.

- ظننت أن المصريات هن فقط من يفعلن ذلك، لكن من الواضح أن الهرمونات لا ترتبط بجنسية!

****

القاهرة، الخميس 12 يونيو 2014

كانت الساعة الثامنة والربع حينما بدأت مراسم افتتاح كأس العالم في البرازيل. التقى سليمان وماجد لمتابعتها في المقهى. لم يكن تميم قد حضر بعد؛ فقد كان ملتزمًا قبل اللقاء بموعد مع والده عند الطبيب وانتظرا وقتًا طويلًا في العيادة المزدحمة.

في العاشرة اتصل تميم بسليمان وأبلغه أنه قد أوصَل أباه إلى المنزل وهو الآن في طريقه إليهما:

- مسافة الطريق وتجداني أمامكما، احجزا لي كرسيًّا لو المكان مزدحم.

- هو مزدحم بالفعل لكن لا تقلق.

وصل تميم إلى المقهى بعد نصف الساعة، وكان هرج شديد وفرَح بهدف التعادل لنيمار في مرمى الكُرْوات.

دخل ليبحث عن صديقيه متخطيًا الرقاب من شدة الزحام وعيناه شاردتان مع التلفاز ليشاهد الهدف في الإعادة، فاصطدم بغير قصد بظهر نادل ممسك بشيشتين متوهجتين كاد أن ينكب بهما على أحد الجلوس، لكنه ضبط توازنه سريعًا ثم التفت إلى تميم ورمقة بنظرة ممتزجة بالارتباك والغضب الشديد وهمَّ بالتشاجر معه لولا اعتذار تميم.

تابع تميم البحث عن صديقيه حتى وجدهما في الخلف ينظران إليه وهما غارقان في الضحك، فنظر إليهما نظرة خجولة وأشار بيديه أن ماذا كان يفعل؟!

وقف له ماجد ليعانقه بعد طول غياب، ثم أفسح له وقال:

- تعالَ اجلس هنا حجزنا لك هذا الكرسي.

فسألهما تميم:

- علامَ ستعزمان عليَّ؟

فأجابه ماجد:

- نعزم على ابن الحاج عثمان بجلاله وقدره؟

- لا زلت على حالك يا ماجد طويل اللسان. لا توجد مشكلة يا صديقي، حسابكم الليلة عندي، وفي المقابل أسألكما الدعاء للوالد، فظروفه الصحية غير مطمئنة.

- لا يا أخي، أنا فقط أمزح معك كما تعلم بالتأكيد... لا حول ولا قوة إلا بالله، شفاه الله وعافاه، ماذا به؟

- آمين يا رب، أصيب بذبحة صدرية منذ وقت قريب، وانتقل إلى العناية المركزة، مكث بها عدة أيام ثم خرج منها بعد إجراء دعامة للقلب.

- أسأل الله أن يعافيه وأن يبارك في عمره.

- يا رب.

توقف حديثهم حتى انتهى الشوط الأول، ليستأنف تميم كلامه مع ماجد ويسأله:

- سليمان أخبرني أنكما تعملان معًا.

- نعم؛ فبعد التخرُّج من الكلية تنقلت بين عدد من الشركات ولم أستقر في أيٍّ منها، لم يكن لي طاقة بعمل المهندسين المدنيين. ولو تعلم أني قبل التخرج كنت أعمل في مجال البيع والتسويق وأهواه كثيرًا، فأخذت القرار بالتحوُّل الوظيفي وتخصصت في مجال الدعاية والتسويق، وأخذت بعض الدورات التدريبية ثم أسست شركة صغيرة للتسويق الإلكتروني، وتعاقدت مع عدد من العملاء في مجالات مختلفة، من ضمنها مشروع سليمان الإعلامي.

- جميل... كثيرًا ما أحاول إقناع والدي باستخدام وسائل التسويق الإلكتروني للترويج لنشاطه التجاري، لكنه لا يهتم ويرى أن الإنفاق فيها غير مجدٍ، ويكتفي باسمه وبسمعة المتجر وبالوسائل التقليدية التي لم يعد أحد يهتم بها كما كان الحال في الماضي.

- والدك كغيره من الكبار، يرى أن طالما العمل يسير والأمور على ما يرام فالإنفاق في هذا المجال يعتبر تبذيرًا. من النظريات العامة ما يقول أن التسويق يمثل نحو 70% من نجاح عملية البيع للسلعة، أو حتى الترويج لأي فكرة. بالطبع هناك عوامل كثيرة تتداخل مع هذه النظرية وتؤثر على هذه النسبة سلبًا وإيجابًا. الفكرة كلها في تحويل المستهلِك من ثقافة الاحتياج إلى ثقافة الرغبة، وإيجاد حاجة المستهلك للسلعة التي تبيع؛ من الممكن تسويق وبيع أي سلعة غير أساسية أو ضرورية للناس عن طريق ربطها مباشرة برغباتهم الدفينة ومداعبة غرائزهم، وتحويل الرغبات إلى احتياجات أساسية لا غنى عنها.

- كيف يتم هذا الربط؟

- ترى هذه السجائر التي أدخنها؟

- لاكي سترايك؟

- نعم؛ هذه السجائر لها قصة طريفة مشهورة؛ ففي مطلع القرن الماضي، كان تدخين النساء للسجائر أمرً معيبًا وغير مقبول مجتمعيًّا.

- وما زال!

- ما علينا؛ المهم هو أن الشركة المنتجة للسجائر كانت ترغب في زيادة حجم مبيعاتها وتحقيق أضعاف المكسب، فلجأت إلى رجلٍ يُدعى إدوارد بيرنيز، والذي بعد تفكير وضع حيلة ليكسر بها هذا التابوه.

- وما هي؟

- في عام 1928، اتفق مع مجموعة من الفتيات،الموديلز، على الخروج في استعراض يجول شوارع نيويورك، وأخبر في الوقت ذاته الصحفيين بأن هناك مجموعة من الناشطات من إحدى جمعيات حقوق المرأة سيقُمن بإيقاد «شعلات الحرية». وعندما حان الوقت وتجمهرت الفتيات، واجتمع الصحفيون المتعطشون لتغطية الحدث، قمن بإشعال سجائر لاكي سترايك، وقام الصحفيون بتصويرهن، وتصدرت الصحف حينها مانشيتات «مجموعة من الفتيات نفث السجائر في سبيل الحرية»، والتي كسرت حاجز الرهبة في قلوب النساء من التدخين على الملأ في الأماكن العامة.

- هذا شيطان!

- بالمناسبة بيرنيز هذا يعتبر الأب الروحي لعلم البروباجاندا، القائم على نشر المعلومات بطريقة موجهة وأحادية، وتوجيه مجموعة مركزة من الرسائل بهدف التأثير على آراء أو سلوك أكبر عدد من الأشخاص. أتعلم؟ جوزيف جوبلز وزير هتلر للدعاية السياسية في ألمانيا النازية، المأثور عنه

قوله الشهير: «أعطني إعلامًا بلا ضمير، أعطك شعبًا بلا وعي»، كان من أشد المعجبين والمتأثرين بأفكار وكتابات بيرنيز. مع العلم أن بيرنيز قد طور هذا العلم لاحقًا لما يعرف اليوم بعلم العلاقات العامة Public Relations نظرًا لسوء سمعة كلمة بروباجاندا وارتباطها بالحروب. ولقد بناه على أسس العلوم الاجتماعية وعلم النفس التحليلي الذي وضعه خاله سيجموند فرويد.

- خاله؟!

- نعم؛ فرويد كان خاله وزوج عمته في نفس الوقت.

- عجيب!

كان سليمان مشغولا بمكالمة على هاتفه، وما أن انتهى منها حتى قام من مقعده فجأة ويبدو عليه الارتباك، والشوط الثاني من المباراة قد تبقى عليه ثلث الساعة، فسأله صديقاه:

- ماذا بك؟ إلى أين أنت ذاهب والمباراة لم تنتهِ بعد؟!

- أبدًا، تذكرت أن زوجتي طلبت مني المرور على الترزي في ميدان الجامع، وأنا نسيت أن أمُرَّ عليه قبل المباراة، ولا بد أن ألحق بالمتجر مع أن أغلب الظن أنه أغلق. عذرًا يا صديقيَّ.

لم يسيطر ماجد على لسانه فقال:

- الزواج وسنينه.

فأجابه سليمان:

- الدنيا دوَّارة يا صديقي فلا تتعجل. في يوم من الأيام كنت أقول مثلما تقول. هل سيقوم أحدكما معي؟

فأجابه تميم:

- هوِّن عليك، فلقد رن هاتفي مثلك منذ خمس دقائق، لكني سأقوم مع ماجد فور انتهاء المباراة.

- أخاف أن أحسدك! هيا أراكما لاحقًا، مع السلامة.

***

لم يمضِ هذا الشهر حتى زادت أحوال عثمان الصحية ترديًا؛ فلم يعد يقدر على مباشرة تجارته بنفسه وصار يعتمد على تميم بشكل أساسي، خاصة وأن أخاه كريمًا آثر الحياة الأكاديمية بعد تخرجه من كلية الهندسة، فهو يعمل الآن معيدًا بالكلية ويحضر الماجيستير في الهندسة الميكانيكية، مما أثر على إدارة تميم لشركة البرمجيات التي افتتحها قبل ذلك بثلاثة أعوام، وعلى موازنة أموره الحياتية بشكل كبير؛ فأصبح يغيب عن البيت بشكل دائم، يتنقل بين شركته وتجارة الوالد ورعاية أمه في بيتها. وعلى الرغم من تضرر كلارا من هذا الوضع، إلا أنها لم تظهر له الضجر ولم تشق عليه بالأعباء والمشاكل الإضافية، وشغلت نفسها بعملها وبرعاية أمها، مظنة أن ينفرج هذا الوضع الذي دام ما يزيد عن ثلاثة أشهر حتى توفي والده. لكن الأمر ازداد سوءًا؛ فلقد أُثقِلَ كاهل تميم بأعباء إضافية من تولي إدارة أعمال والده بالكامل بناء على ما تضمنته وصيته، بما فيه ذلك مشاكل الديون والإرث. وزاد الأمر تعقيدًا مفاجأة عمِّه جلال له بمطالبته بسداد ما تبقى من دين والده له، وإلا قام بشكل نهائي ببيع شاليه العين السخنة وفقًا للعقد المبرم بينه وبين والده.

سأله تميم حينها بغضب:

- تبيعه بأي حق يا عمي؟ وأي عقد تقصد؟

فأطلعه عمه على عقد أصلي موقع بخط يد والده ومحفوظ في ملف أخضر. كانت صدمة تميم كبيرة حينما تذكر ذلك الملف الذي سلَّمه له بنفسه يوم أن ذهب لزيارته مع والده منذ قرابة تسع سنوات. فقال له عمه:

- والدك عثمان رحمة الله عليه كان وقتها مثقلًا بالديون ومهددًا بالسجن من قِبَلِ بعض من يتاجر معهم، ولم يكن يحب أن يطلعكم بهذه الأمور لكي لا يعكر لكم حياتكم. فأقرضته مبلغًا كبيرًا وأبرمنا عقدًا برهن شاليه العين السخنة فقط لضمان جدية السداد خلال ثلاث سنوات لم يسدد خلالها شيئا وتحجج بالتعسر الشديد. فاصطبرت عليه وأمهلته عامين آخرين واشترطتُ في العقد هذه المرة في حالة عدم السداد في الموعد أن يكون لي مطلق الحق ببيع الشاليه وتطهير العقار من الرهن، ووافق هو على ذلك ووقَّع. نشبت بيننا بعض الخلافات خلال السنتين، وفي آخر المهلة بدأ في سداد جزء يسير من المبلغ وظل يرسل إليَّ دفعات صغيرة، فرأيت منه جدية الرغبة في السداد فاصطبرت عليه مرة أخرى حسبة لله ومراعاة لأنه أخي الأكبر الذي رباني وساعدني في مصاريف زواجي بعد وفاة جدك عبدالتواب رحمه الله. والآن أنتم بين خيارين؛ إما سداد باقي المبلغ، أو عرض الشاليه للبيع.

- لا يا عمي، لا تعرضه للبيع، وأنا أعدك بسداد باقي المبلغ قبل نهاية هذا العام بإذن الله.

نتيجة لذلك الخبر الصادم الذي وقع على تميم كالجبل لم يستطع الوفاء بعهده لكلارا لما يزيد عن عام كامل، وبالكاد أخذها للمرة الأولى لأداء مناسك العمرة في شهر رمضان عام 1436/ يونيو 2015، وليؤدي هو عمرة أخرى عن والده.

ومع انتهاء هذا العام بدأت الأمور تستقر وتهدأ؛ فقد أعاد تميم ترتيب أوراقه ومراجعة مسؤولياته وأولوياته؛ فباع شركة البرمجيات الخاصة به، وسدد الدين لعمِّه وفسخ عقد البيع. وتفرغ تمامًا لإدارة تجارة والده، واستعان بصديقه ماجد للتسويق لها، والذي نجح في وضع إستراتيجية متطورة ورؤية مستقبلية جديدة. كذلك فقد أنهى تميم كل تعقيدات الميراث وأكرم والدته وأخاه ولم يبخسهما حقَّهما شيئًا.

***

القاهرة، الخميس 3 مارس 2016

مع بداية هذا العام، حدثت انفراجة كبيرة لتميم في نشاطه التجاري وبدأت الخطة التسويقية تؤتي ثمارها، حتى إنه بدأ يخطط للتوسع بافتتاح فرعٍ ثانٍ في القاهرة الجديدة وثالثٍ في مدينة 6 أكتوبر، ووجد أن الوقت قد حان للوفاء بعهده لكلارا.

ففي مساء هذا اليوم، بعد عودته من العمل، وهم على طاولة العشاء يتجاذبون أطرف الحديث، باغت تميم مارجاريتا بقوله:

- ما رأيك مارجاريتا في الذهاب هذا العام في رحلة إلى روسيا؟

- مؤكد أنك تمزح!

- أبدًا، والله لا أمزح.

- أهذا معقول؟! كأنك تعلم كم أشتاق إلى هذه الرحلة منذ وقت طويل، وأنه لم يَحُلْ بيني وبينها إلا المرض وعدم القدرة على السفر بمفردي.

- وأنا مستعد لتحقيق أمنيتك عزيزتي، فقط حددي الوقت المناسب مع كلارا.

- أنا لا أصدق! ما رأيك كلارا؟

- تميم جادٌّ فيما يقول لك يا أمي، وقد وعدني بهذا منذ قرابة عامين لولا الضائقة التي مر بها. فأي وقت ترغبينه يا حبيبتي، أنا أيضًا مستعدة.

- لِنَرَ إذن؛ فعندي في المركز دورة تدريبية تنتهي آخر هذا الشهر، فما رأيكما في الشهر القادم؟

فسألها تميم:

- وهل الطقس في أوكرانيا في شهر إبريل ملائم للسفر؟

- أوكرانيا؟؟

لم يكمل تميم سؤاله حتى استقبل ركلة بقدم كلارا من أسفل المنضدة فانتبه، فأجاب مارجاريتا سريعًا مستدركًا الأمر:

- هل قلت أوكرانيا؟ لا أنا أقصد روسيا بالتأكيد.

- نعم؛ الطقس ربيعي بارد في روسيا في شهر إبريل.

- لا بأس، ما رأيك في قضاء ثلاثة أسابيع هناك؟

- رائع!

- اتفقنا. لو في إمكانكِ كلارا أن تحجزي لنا الطيران، وحددي لنا التوقيت، لأرتب حالي في العمل.

- اتفقنا.

تأكد الحجز يوم الأربعاء الثلاثين من شهر مارس؛ عادت كلارا من مكتب الطيران واحتفظت بالتذاكر في درج التسريحة. أغلقت باب الغرفة عليها وعلى تميم، ثم دخلا موقع chernobyl-tours.com ليحجزا رحلة بريبيات، واختارا لها يوم الأحد 10 إبريل.

***

موسكو، الأربعاء 6 إبريل 2016

لما وطِئت قدما مارجاريتا مطار موسكو أخذت نفسًا عميقًا استردت به عافيتها، ثم استقل الثلاثة ياندكس تاكسي Yandex إلى البيت القديم في شارع كومسومولسكايا بيرولوك. دخلوا المنزل ووضعوا أمتعتهم وأزالوا الملاءات البيضاء عن الأثاث، فأصبح البيت أهلًا للمبيت، فقط يحتاج إلى بعض التنظيف السطحي.

ابتدرت مارجاريتا رحلتها بعد الراحة بزيارة قبر فيكتور، ثم أمضوا أسبوعهم الأول في الاستجمام والتنزه وزيارة بعض الأصدقاء.

مساء يوم الأربعاء، بعد جلسة لطيفة في مقهى ستارباكس بشارع بريسنينسكايا Presnenskaya، وفور العودة إلى المنزل، فوجئت مارجاريتا بهدية رقيقة من تميم وكلارا؛ باقة ورود مع ظرفٍ وردي كُتِبَ عليه بخط كلارا الجميل رسالة حب وتقدير إلى مارجاريتا. أخذت مارجاريتا الهدية بامتنان كبير، ثم سألتهما:

- ماذا في هذا الظرف؟

أجابتها كلارا بأن تفتحه وترى بنفسها.

فتحته مارجاريتا بترقب، فوجدتها رحلة طيران مدتها أربعة أيام عودة وإيابًا إلى كييف، فسألت كلارا:

- لماذا سنذهب إلى أوكرانيا كلارا؟ هل الجنسية في حاجة إلى تجديد؟

- لا يا أمي، ولكن... سننطلق من هناك في رحلة إلى بريبيات.

- بريبيات!!

- نعم يا أمي، بريبيات؛ سنذهب في زيارة سياحية إلى المدينة.

- يا ربي! هل أنت جادة فيما تقولين؟!

- بالتأكيد يا أمي؛ اتفقت مع تميم منذ عامين تقريبًا على ترتيب هذه الرحلة وإهدائك إياها. صراحة يا أمي منذ أن قصصت له مدى اشتياقك لزيارة روسيا وهو يشجعني جدًّا على هذه الرحلة وعلى اقتراحي بزيارة بريبيات واجتهد كثيرًا لتحقيقها.

- أنا لا أصدق! كم أنتما وفيان يا ولَدَيَّ.

انهمرت دموع مارجاريتا وارتمت في حضن تميم وكلارا، اللذين لم يتمالكا هما أيضًا دموعهما.

استجمعت مارجاريتا قوتها وجففت دموعها، وقالت:

- لم أتخيل أبدًا في يوم أني سأعود إلى هذا المكان بعد كثرة الوعود التي وعدنا بها السوفييت ثم تركونا نلقى مصائرنا بأنفسنا.

ثم وجهت كلامها لتميم وقالت:

- أنت كابدت كثيرًا يا بني لإسعادي أنا وابنتي، لا أصدق كيف أنك بهذه الرقة والطهر وبهذا القلب النقي، أنت لست ملزمًا بأن تفعل شيئًا

مـن هـذا أو تشـق عـلى نفسـك وتتكبـد كل هـذه المصاريـف! أشـعر بالفخـر لأني أحسـنت اختيـار زوجٍ لابنتـي، أشـكرك يـا تميـم.

- تشـكريني عـلى مـاذا يـا أمـي، أنـا أحببتـك وابنتـك بصـدق، وهـذا أقـل مـا يمكـن فعلـه لـكي أعـبر لـك عـن حبـي وعرفـاني. هيـا، دعينـا مـن هـذا الآن، فلدينـا يومـان آخـران في موسـكو نسـتعد فيهـما للرحلـة، ثـم نعـود بعـد أربعـة أيـام، ونكمـل أسـبوعًا آخـرَ هنـا، ثـم نعـود إلى القاهـرة بسـلام.

أمضـت مارجاريتـا ليلتهـا في سريرهـا تتأمـل صورتهـا مـع فيكتـور مسـترجعة شريـط الذكريـات بحلـوِه ومُـرِّه، تُقلِّـب وسـادتها المغرقـة بالدمـوع.

***

أوكرانيا، بريبيات، الأحد 10 إبريل 2016

كانت نقطة الالتقاء في كييف بجوار محطة القطار في تمام الساعة السابعة والنصف صباحًا لتسجيل الحضور ومراجعة البيانات، والتأكد من الالتزام بمعايير السلامة المنصوص عليها من ارتداء سترة أو قميص بأكمام طويلة، وسراويل وأحذية تغطي القدم بالكامل، ثم استقلال الحافلة في تمام الساعة الثامنة والاتجاه شمالًا مسافة 140 كم إلى منطقة تشيرنوبل المحظورة.

عند الوصول، مرَّ الفوج بنقطة التفتيش الأمنية بقرية ديتياتكي Dytiatky لإبراز جوازات السفر التي لا يمكنهم بحال المرور بدونها

بدأت الجولة بزيارة المفاعل الرابع المتسبب في الكارثة، والمسموح بالاقتراب منه بمسافة 300 متر لا أكثر، ومشاهدة التابوت الأسمنتي العملاق الذي تم بناؤه لتغليف المفاعل الرابع لمنع تسرب الإشعاع، والذي تعرض للتشققات واستمرت أعمال البناء والصيانة فيه حتى عام 2015.

انتقلوا بعد ذلك لزيارة عدد من المواقع ضمن برنامج الرحلة؛ فتوجهوا لزيارة محطة رادار دوجا DUGA العسكرية السرية، ووحدة المطافئ الرئيسية بتشيرنوبل، والتي كان يعمل فيها فيكتور، والمستشفى التي انتقل

إليها المصابون. ثم انتقلوا لزيارة «الغابة الحمراء» التي اكتسبت اسمها من أشجار الصنوبر التي اصطبغت باللون الأحمر المتوهج بفعل الإشعاع.

أعقب ذلك تناولهم لوجبة الغداء في مطعم آمن بتشيرنوبل، والذي يشترط قبل دخوله المرور ببوابة أمان للكشف عن الإشعاع بأجسام الزائرين.

وصلت الرحلة بعد ذلك إلى مدينة بريبيات، المحطة الأهم لمارجاريتا وكلارا، وقد صارت مدينة أشباح موحشة. كانت لا تزال زينة الاحتفالات بعيد العمال تلمع في طرقاتها، ومبانيها بمعمارها الكابوسي الكئيب توحي بأن السوفييت قد بُعثوا من جديد.

تجوَّل الفوج بين شوارعها ومبانيها المهجورة، ومرُّوا بأبرز معالمها؛ كالبريوزكا الذي كانت تعمل فيه مارجاريتا، وبعض المحال التجارية، وحمام السباحة المغطى «لازورني» **Lazurny** المنشأ بالمعايير الأوليمبية، وبعض دور الحضانة المكدسة بسرائر الأطفال الصدئة، وبأقنعة الغاز والعرائس البلاستيكية المشوهة بفعل الإشعاع، والتي صارت أشبه بعرائس الفودو المخيفة. ثم انتقلوا لزيارة بعض المدارس حيث الكتب المدرسية تغطي الأرضيات وما زال بعضها في مواضعها على مكاتب الطلَّاب، وكأن جرس الفسحة قد رنَّ للتو. ثم توجهوا لأخذ جولة في حديقة الملاهي الخَرِبة، وتفقد عجلتها الضخمة وسياراتها المتصادمة التي تعتبر أبرز معالم المدينة، بل وأيقونة تشيرنوبل السياحية.

في الطريق إلى حديقة الملاهي، تلمح مارجاريتا عن يمين الطريق روضة الأطفال التي كانت ترسل إليها كلارا منذ ثلاثين عامًا مضت، فقبضت على يد ابنتها بقوة تسترجع يوم الخامس والعشرين من إبريل 1986، وتقص

عليهـا يـوم اصطحبتها مـن هـذه الروضـة إلى المنـزل وأتـت إليهـا بثمـرات الفراولـة التـي تحبهـا.

وصلـوا إلى حديقـة الملاهـي، وقـد اعتـلى الـران عجلتهـا الكبـيرة وسـياراتها المتصادمـة، فأمهلـم المرشـد بعـض الوقـت ليتأملوهـا ويتجولـوا فيهـا، فقالـت مارجاريتـا لـكلارا:

- في اليـوم ذاتـه ونحـن عائـدان إلى المنـزل كنـت تُشـيرين إلى هـذه العجلـة وتطلبـين ركوبهـا، ووعدتُـك بـأن نفعـل ذلـك يـوم افتتاحهـا المرتقـب بعـد خمسـة أيـام، والـذي لم يتـم حتـى هـذه اللحظـة.

فسألتها كلارا:

- أين يقع منزلنا يا أمي؟

- لحظـات لعـلي أتذكـر... نعـم؛ يقـع هنـا خلـف هـذه الأشـجار، في مبنـى 17أ.

- ألا يمكننا أن نذهب إليه؟

- كـم أتمنـى ذلـك يـا ابنتـي، لكـن لا أظنـه مسـموحًا، فمسـارات الرحلـة محـددة كـما تعلمـين.

- ومـاذا في ذلـك يـا أمـي؟ فقـط أخـشى أن نسـأل المرشـد عـن ذلـك فيرفـض ويتنبَّـه لنـا. أقـول لـك؛ بعـض المغامـرة لـن يـضر، ولحسـن الحـظ الفـوج يضـم خمسـة عـشر فـردًا غيرنـا، فلـو أحسـنَّا التـصرف وانطلقنـا في التوقيـت المناسـب لا أظـن المرشـد سـينتبه إلى الأمـر سريعًـا. ولا تخـافي فسـيكون معنـا جهـاز Terra-P الـذي اسـتأجرناه لقيـاس الجرعـات الإشـعاعية التـي نتعـرض لهـا في كل مـكان خـلال الرحلـة، بذلـك لـن نعـرِّض أنفسـنا للخطـر لـو حـدث وارتفـع المـؤشر عـن المسـموح بـه.

- أنت مجنونة.

- هههههههههه لماذا يا أمي، فقط اسمعيني؛ لنقترب رويدًا من هذه الأشجار كأننا نتفقد الحديقة، ووقتما يغفل المرشد عنَّا نعبر الأشجار إلى شارع.

- كلارا أنا كبر سني على هذا الطيش.

- يا أمي أنت شباب، وهي تجربة ستصيب أو تخيب، لن نخسر شيئًا بالمحاولة، كأننا سيَّاح فضوليون. فقط كوني خفيفة الحركة.

كان تميم يلتقط الصور للسيارات المتصادمة، فتوجهت إليه كلارا وهمست في أذنه لتخبره بما عزما على فعله، فكتم الضحكة وقال لها:

- لو اكتشف أمركما فسأنفي علاقتي بكما.

- نذل!

- رجاءً.. الحرص يا حبيبتي.

- لا تقلق.

وقفت مارجاريتا مع كلارا بجوار الأشجار يلتقطان الصور ويراقبان المرشد اليقظ في انتظار اللحظة التي يزيغ بصره عنهما، وكان تميم يقف أمامهما بمسافة ليغطيهما بظهره. في اللحظة التي استدار فيها المرشد وتحرك بالفوج إلى جانب آخر من الحديقة، تسللت كلارا ومارجاريتا خلف الأشجار وخرجتا من الناحية الأخرى إلى شارع سبورتيفنايا.

- أين المبنى يا أمي؟

- ها هو يا ابنتي، هذا المبنى المرتفع جهة الشمال.

انطلقا إليه سريعًا ووقفا أمامه وكانت البوابة مفتوحة، فقالت كلارا لأمها بحماسة وعيناها تلمعان:

- هيا لنصعد يا أمي.

- نصعد إلى أين يا كلارا؟! إنها سبعة أدوار؟

- وما الإشكال يا أمي، هيا سريعًا؛ لكيلا لا نتأخر.

- تمهَّلي كلارا! فهذا قد يوقعنا في مشكلة كبيرة مع الأمن؛ لأني كما علمت من مطالعتي للأخبار أن الحكومة الأوكرانية بعد أن سمحت رسميًّا بالرحلات السياحية لمنطقة تشيرنوبل في عام 2011، سرعان ما منعت السائحين من دخول المباني بدعوى الحفاظ على سلامتهم.

- يا أمي لا تضيعي الوقت أكثر من ذلك في هذا الجدل، هذه فرصة لن تتكرر، لو رآنا أحد؛ فاتركي الأمر لي.

اندفعت كلارا إلى داخل المبنى فلم تجد مارجاريتا مفَرًّا من اللحاق بها، فتبعتها بقلب مسرور متوجس خيفة. في دقائق معدودة وصلتا إلى الدور الثامن. لم يعد يفصل بين مارجاريتا وبين ماضيها إلا بضع خطوات.

- أي شقة يا أمي؟

- سامحك الله يا كلارا! لا أستطيع التقاط أنفاسي ومفاصلي تؤلمني جدًّا! هنا جهة اليمين، رقم 76.

كانت أبواب كل الشقق مفتَّحة، وعلى باب مارجاريتا المفتوح كانت الورقة ما تزال ملصقة، والتي كانت قد كتبت عليها وقت المغادرة:

«أيها العابر العزيز، لا تبحث عن مقتنيات ثمينة لم نمتلكها، يمكنك استخدام أي شيء، لكن لا تسرق، سنعود».

لكن يبدو أن السوفييت لم يوفوا بوعودهم بحماية الممتلكات، والعابر لم يقتنع برسالة مارجاريتا، وترك شقَّتها خاوية على عروشها مثل باقي

الشـقق، حتـى إن أحدهـم أرَّق مضجـع صوفيـا المسـتلقية عـلى الأريكـة منـذ رحيـل كلارا فأخـذ الأريكـة وطـرح صوفيـا أرضًـا.

أشارت مارجاريتا إلى الدمية وقالت:

- هـذه يـا ابنتـي دميتـك صوفيـا، جذبتهـا مـن يـدك يـوم أن غادرنـا وألقيت بهـا عـلى أريكـة حمـراء كانـت موجـودة هنـا، وتحملـت صراخـك حيـث مُنِعنـا مـن أن نأخذهـا وكل مـا هـو غـير ضروري في نظرهـم.

- ياه يا أمي، لقد أصبَحت مرعبة وكأنها تتجسد فيها روح شريرة.

- المدينة كلها يا ابنتي صارت كذلك!

ظلـت كلارا واقفـة تتأمـل في صوفيـا، فتركتهـا مارجاريتـا ودخلـت لتتفقـد غرفـة نومهـا، التـي شـهدت العنـاق الأخـير بينهـا وبـين زوجهـا.

رغـم التحذيـرات الشـديدة بعـدم لمـس أي شيء تفاديًـا لأي ضرر، قامـت كلارا بإخـراج منديـل ورقـي تحتفـظ بـه في جيبهـا لتلتقـط بـه صوفيـا مـن الأرض وترفعهـا إلى جـوار النافـذة، ثـم أخرجـت مـن جيبهـا هاتفهـا المحمـول لتلتقـط صـورًا لصوفيـا وتأخـذ معهـا سـيلفي.

- هيا يا ابنتي، لقد تأخرنا كثيراً.

- حسنًا يا أمي، هيا بنا.

نزلتـا سريعًـا وغادرتـا المبنـى، وتسـللتا عـبر الأشـجار إلى حديقـة الملاهـي. كان الفـوج قـد انتهـى مـن جولتـه داخـل الحديقـة، وبـدأ المرشـد في التسـاؤل والبحـث عنهـما، فـما إن دخلتـا الحديقـة حتـى لاحظهـما المرشـد وأقبـل عليهما مهـرولًا، ليسـألهما في فـزع وبنـبرة غضـب:

- أين كنتما؟

- فأجابت كلارا:

- كنا نتجول هنا في الشارع الخلفي.

- ولكنكما تعلمان جيدًا أن هذا ممنوع منعًا باتًّا ومخالف لضوابط الجولة، وقد يتسبب لي بضرر ومعاقبة على الإخلال بقوانين العمل. وللعلم لو ترتب على هذا الموقف شيء يضر بسلامتكما فلا تلوما إلا أنفسكما؛ فقد وقَّعتما تعهدًا بذلك قبل الرحلة.

فأجابته كلارا بابتسامة هادئة:

- لا تخف؛ فلن نخبر أحدًا. ولا تقلق على سلامتنا؛ فنحن من شعب تشيرنوبل!

سكت المرشد قليلًا وأخذ يدقق في ملامح مارجاريتا بشكل أثار حفيظتها، فسألته بضجر:

- خيرًا؟

- أبدًا أبدًا لا شيء، معذرة سيدتي، هل ممكن أن تخبريني باسمك؟

- مارجاريتا.

- مارجاريتا! مارجاريتا من؟

- مارجاريتا ديميتري.

- ربَّاه! مارجاريتا زوجة العم فيكتور!

ارتعدت مارجاريتا فور ذكر اسم زوجها، فقالت له في ذعر:

- نعم! هل تعرفني؟!

- تمام المعرفة يا عمَّة.

- من أنت؟!

- أنا يوري ابن أنطون صديق العم فيكتور.

- حقًّا! أشعر بدوار شديد، كيف حالك يا يوري؟ أراك رجلًا كبيرًا الآن.

- نعم؛ بلغت من العمر 42 عامًا. استندي على ذراعي يا عمَّة، تعالي لنجلس.

- لا بأس، أنا بخير الآن. كيف حال والديك؛ أنطون ونينا؟

- أمي توفيت منذ وقت كبير، ووالدي أنطون يعيش معي في كييف أنا وزوجتي وبناتي الثلاث، ستكون فرصة طيبة ومفاجأة سارة له لو عدتما معي اليوم إلى المنزل وقبلتما دعوتي للعشاء.

- هذه دعوة كريمة بالفعل نابعة من نبل أخلاقكم المعهود، لكن لا أظن أننا سنتمكن من ذلك الليلة، فالوقت سيكون متأخرًا ونحن في غاية الإجهاد. لا يزال أمامنا يومان في كييف، من الممكن أن نلتقي في إحداها.

- رائع، غدًا ليس في جدولي رحلات، ما رأيك في تشريفنا بالزيارة في الصباح الباكر لتناول الإفطار معًا؟

- ليس عندي ما يمنع، ما رأيك كلارا؟

- لنرى رأي تميم.

توجَّه إليها يوري بالحديث فقال:

- أتذكرك جيدًا كلارا حينما كنتِ طفلة صغيرة مشاكسة، لعبنا مرارًا في البيت وفي حديقة الأطفال المجاورة.

- لا أتذكر هذه الأيام للأسف، لكن مؤكد أنها كانت أيامًا جميلة، يا لها من صدفة عجيبة يا يوري.

- نعم؛ هي عجيبة لا شك، هل تميم زوجك؟

- نعم.

- اسمه غير مألوف.

- نعم؛ فهو مصري.

- حقًّا! جميل، لنذهب لأتعرف به.

- بالتأكيد، هيا بنا.

كان تميم لا يزال واقفًا بجوار عربات الملاهي المتصادمة الصدئة يتأملها، وقد بدت عليه الحيرة والقلق لتأخر زوجته وأمها. في اللحظة التي أعاد فيها النظر نحو الأشجار التي تسلَّلا خلالها وجدهما مقبلين برفقة المرشد، فازداد قلقه وارتباكه، حتى عندما وجده يبتسم في وجهه ويصافحه بحرارة:

- كيف حالك سيد تميم، سعيد بزيارتك.

بادله تميم الابتسامة بابتسامة حذرة ونظر إلى كلارا ولسان حاله يقول: من هذا؟ فأجابته:

- تخيل الصدفة يا تميم، هذا يوري ابن العم أنطون صديق والدي وجارنا في بريبيات.

- حقًّا! أهذا معقول؟ أهلًا بك يا يوري، سعيد بمعرفتك.

- وأنا كذلك يا رفيق، ولن تكتمل سعادتي إلا بقبولك دعوتي على الإفطار في منزلي بكييف غدًا في التاسعة صباحًا.

فنظر تميم إلى مارجاريتا وكلارا ليعرف رأيهما، فوجدهما يبديان الرغبة في ذلك، فوافق تميم على الفور. فقالت مارجاريتا إلى يوري ضاحكة:

- لكن احذر، ابنتي وتميم لا يأكلان إلا «الطعام الحلال»، فهما مسلمان،

فلا تجهد زوجتك فيما لن يأكلاه.

فأجاب يوري باندهاش:

- حقًّا كلارا؟! حسنًا، وما الإشكال في هذا؟ سنكون على أتم استعداد بإفطار يليق بهذه الصدفة العظيمة.

- شكرًا جزيلًا يوري، إذن اتفقنا.

استكمل الجميع الرحلة التي انتهت في حدود السابعة مساءً بالمرور لمرة أخيرة عبر البوابات المخصصة للكشف عن الإشعاع للاطمئنان على سلامة الزائرين قبل المغادرة. خرج الجميع بسلام ليستقلوا الحافلة التي تعود بهم إلى كييف في التاسعة مساءً. وما إن وصلوا الفندق حتى استلقى كل منهم على سريره بغير كلام. استسلم تميم وكلارا إلى النوم سريعًا بينما ظلت مارجاريتا تفكر فيما يخفيه لها القدر غدًا.

***

أوكرانيا، كييف، الاثنين 11 إبريل 2016

في تمام الساعة التاسعة صباحًا، كان تميم يطرق الباب. فتح لهم يوري واستقبلهم وزوجته المهذبة بحفاوة كبيرة وطلبا منهم الدخول إلى غرفة المعيشة حيث كان أنطون ينتظرهم على أحَر من الجمر. دخلوا فوجدوه واقفًا لاستقبالهم بابتسامة عريضة. كان رجلًا سمينًا متوسط الطول وردي البشرة يعلو الشيب رأسه، وتبدو عليه أمارات الطيبة وخفة الظل. سلم عليهم بحرارة اغرورقت معها عيناه بالدمع، ثم توجهوا للجلوس على طاولة الطعام، فبادرته مارجاريتا بالكلام:

- تبدلت ملامحك كثيرًا أنطون، لكن روحك الطيبة لم تنطفئ.

- وأنت كذلك عزيزتي مارجاريتا.

- آخر مرة التقينا كان في منزلنا منذ ثلاثين سنة، كنا نتناول العشاء وكانت حبيبتي الطيبة نينا ويوري برفقتك، كان لا يزال صبيًّا جميلًا يلعب مع كلارا على الأرض.

- نعم؛ أتذكر هذا اليوم جيدًا، كنا نحب طعامك جدًّا، وكانت كلارا دائمة الشكوى من يوري بأنه كان يغيظها بضرب دميتها، لا أذكر ما كان اسمها، كلارا؟

- صوفيا.

- نعم؛ الآن أتذكر، كانت جميلة وشقراء.

- عـثرت عليهـا أمـس لمـا تسـللت إلى المنـزل أنـا وأمـي قبـل أن يكتشـف يـوري أمرنـا، والتقطـت معهـا بعـض الصـور، لكـن لم أسـتطع حملهـا معـي للأسـف.

نظر إليها يوري وقال:

- سامحكما الله، كان في الإمكان أن أتحول للتحقيق ليلة أمس بسببكما.

فضحك الجميع، ثم أردفت مارجاريتا:

- كانـت الحيـاة هادئـة وجميلـة؛ بعـد تلـك الجلسـة الأخـيرة بأقـل مـن أسـبوع، ليلـة انفجـار تشـيرنوبل، طلـب منـي فيكتـور قبـل الانـصراف إلى عملـه أن أذهـب إلى متجـرك في اليـوم التـالي لأسـتلم منـك شـيئًا خاصًّـا بـكلارا، ثـم ذهـب إلى مصيره المـؤلم، وزال الأمـر تمامًـا عـن ذهنـي حتـى رأيـت يـوري أمـس.

- نعـم؛ لكـن أنـا لم أنـس، إلا أن صبيحـة الانفجـار أخـذت أسرتي واسـتقللت السـيارة وتركـت متاعـي الخفيـف وهرعـت إلى هـذا المنـزل، منـزل الوالـد، بغـير تفكـير أو انتظـار أخبـار، فقـط ليقينـي التـام بأنهـا كارثـة حلّـت عـلى المدينـة لـن يفصـح السـوفييت عـن حقيقتهـا ولـو بعـد حـين، فجئـت لأتابـع المهزلـة الإخباريـة مـن هنـا. سـعيت للوصـول إليـك للاطمئنـان، وللأسـف في ظـل انقطـاع الاتصـالات والتخبـط الكائـن حينهـا فشـلت في الوصـول إليـك، ولم يصلنـي خـبر فيكتـور إلا بعـد قرابـة شـهرين، حينـما خـرج مـن المستشـفى أخـي بيـترو زميـل فيكتـور في وحـدة المطافـئ، والـذي أصيـب بحـروق خطـيرة جـراء الحريـق، خـرج ليسـتكمل علاجـه هنـا في المنـزل، حتـى مـات بعـد ذلـك

بشـهور قليلـة تأثـرًا بالسـموم الإشـعاعية. كانـت محنـة عظيمـة مـرَّ بهـا زوجـك فيكتـور، أسـأل اللـه القديـر أن ينتقـم لـه مـن سـايمون الملعـون.

- مـن سـايمون، وممَّ ينتقـم منـه الـرب؟ لا أفهمـك. ألم يكـن سـايمون هـذا زميـل فيكتـور في المطافـئ؟ مـاذا فعـل؟ هـل تخـلى عنـه وقـت الكارثـة؟ هـل أقحمـه في الحريـق لينجـو بنفسـه؟ أم مـاذا؟ أخـبرني أنطـون؟

- هـل أنـتِ جـادة في أسـئلتك مارجاريتـا؟ أباللـه لا تعرفـين مـاذا فعـل هـذا الحقير؟

- أبدًا، أقسم لك!

- !!!

- ماذا بك أنطون، أنت تحرق أعصابي هكذا!

- حـكى لي أخـي بيـترو قبـل وفاتـه بأنـه في هـذه الليلـة كان رجـال الورديـة يتسـامرون ويتمازحـون حتـى اقتحـم عليهـم قبـل الانفجـار بسـاعتين أفـراد مـن الــ KGB وسـألوهم عـن فيكتـور، فلاحـظ بيـترو سـايمون يغمـز إليهـم مشـيراً إلى زوجـك، فاقتـادوه بالقـوة إلى مـكان غـير معلـوم.

- هاه!!!

- نعم؛ عرفت منه لاحقًا أنه كان متهمًا بالتخابر لصالح الـ CIA...

قطعت كلارا حديثه وسألته بحدَّة:

- عرفت ممَّن؟؟

- من فيكتور.

- أبي؟! هل هو حيٌّ؟؟!

- نعم حبيبتي!

في نفس واحد صرخت كلارا وأمها:

- حيٌّ!!!

انقلبت الدنيا رأسًا على عقب، وترك تميم ويوري الطعام وظلا شاهرين فاهيهما يتابعان الموقف بذهول. قالت مارجاريتا بتخبُّط:

- ولِمَ لم تخبرني يا يوري بالأمس؟ ولم لم تنطق بهذا يا أنطون فور أن رأيتنا؟!

- عزيزتي صدقيني، أنا ويوري انقطع حديثنا عن هذا الأمر منذ سنوات، ولم يبدر إلى ذهننا أنك لا تعلمين هذا، اهدئي أرجوك.

- لقد انقطعت الأنفاس وحبال الرجاء وقتها في البحث والسؤال عن فيكتور، ولم أنتقل من المخيم للعيش مع أخي ألبرت في موسكو حتى أكد لي أحد الضباط خبر مصرعه في الحريق، وأنه وباقي الأبطال تم دفنهم في مقبرة ميتينسكو وانتهى الأمر على ذلك، لأواجه قسوة الحياة ووحشتها وحدي أنا وابنتي.

- هذا ما أخبرني به بيترو؛ وظللت بعد ذلك لا أعلم شيئًا جديدًا عن فيكتور حتى أُفرِجَ عنه في 2008. وجدته يطرق هذا الباب وهو في حالة إنهاك شديد؛ دخل وبكى بكاءً مريرًا وأخذ قسطًا وافيًا من الراحة ثم انصرف. كان يخرج بشكل يومي للبحث والسؤال عنك وعن ابنتك لكن بغير جدوى، فعاش بعد ذلك سنين عمره مكتئبًا يائسًا ينتظر الموت.

- كيف عرفت كل هذا؟

- هو من أخبرني.

- كيف ذلك؟ هل التقيته؟

- بل ألتقيه.

- تلتقيه!

- نعم؛ أذهب لزيارته والاطمئنان عليه وتلبية احتياجاته أول كل شهر.

- وأين ذلك؟

- هــو يعيــش منــذ خروجــه في دار للمســنين هنــا في كييــف، تبعــد كثــيرًا عــن المنــزل.

فقاطعته كلارا مرة أخرى:

- وماذا ننتظر إذن؟ لماذا لا نذهب إليه الآن؟

نظر أنطون في ساعته وقال لهم:

- لا أظــن أنَّ هنــاك مشــكلة، فالســاعة لا تــزال العــاشرة إلا الربــع، مــا رأيــك يــا يــوري؟

- أنــا مســتعد يــا أبي، أَنــزل فــورًا لتجهيــز الســيارة وأنتظركــم فيهــا، لكــن أكملــوا إفطاركــم أولًا.

فقالت له مارجاريتا بلهفة:

- اعذرني يا بني، لكن لو أنت مكاني هل ستنتظر إنهاء الطعام؟

- معك حق يا عمَّة، إذن لنذهب الآن.

***

كانــت الــدار تبعــد مســافة 75 كيلومــترًا مــن المنــزل قطعوهــا بالســيارة في ســاعة. وصلــوا فتقدمهــم أنطــون حيــث كان النــاس يعرفونــه في الــدار تمــام المعرفــة، فتوجَّــه إلى موظــف الاســتقبال الــذي ســلَّم عليــه بترحــاب، واســتأذنهم بالجلــوس في الصالــة:

- كيف حالك فانكو، هل سيد فيكتور في غرفته؟

- نعم؛ هو في الغرفة، لم يخرج اليوم للإفطار مع باقي النزلاء.

- هل من ممكن إخباره بأن بعض الأصدقاء جاؤوا لزيارته؟

- لحظات أتصل به لنرى هل هو مستيقظ ويرغب في الزيارة أم لا.

يرفع فانكو سماعة الهاتف متصلًا بالغرفة:

- صباح الخير سيد فيكتور...

كانت مارجاريتها تقف مذهولة لا تصدق أن زوجها يجيب الآن على هذا الهاتف، كاد يتوقف قلبها، وشعرت بثقل شديد في قدميها فتشبثت بتميم وقبضت على ذراعه بقوة، حتى أذن لهم موظف الاستقبال بالتوجه إلى الغرفة، لم تقوَ مارجاريتا على المشي بمفردها، وظلت متشبثة بذراع تميم، وكلارا تضمها من الناحية الأخرى، وأمامهم يتقدم أنطون ويوري.

طرق أنطون الباب وفتح ودخل وهم من خلفه، فنادى على فيكتور بصوته الجهوري وطريقته المعتادة:

- صديقي العزيز فيكتور، جئتك بمفاجأة فلننظر كيف ستكافئني عنها.

كان فيكتور يجلس على أريكة في أقصى الغرفة ينظر إلى النافذة المطلة على الحديقة والتي تضيء له الغرفة بضوء خافت، كان يدفئ رأسه الأصلع بطاقية من الصوف، وتبدو عليه النحافة الشديدة وتقوُّس الظهر، التفت إلى صوت أنطون فاستدار ورمق من أسفل النظارة لينظر من القادم.

كانت قوى مارجاريتا قد خارت تمامًا ولم تقوَ قدماها على حملها، فأخذ تميم وكلارا يجرجرانها إلى أن اقتربوا من فيكتور الذي هاله هذا المنظر ودبَّ في قلبه الخوف، لم يتبين له من خفوت الضوء وضعف البصر

من هؤلاء الضيوف البائسين، حتى جثت مارجاريتا أمامه على ركبتيها وصرخت باسمه: فيكتور! ثم احتضنته وانهارت في البكاء، ومن خلفها كلارا التي ارتمت في حضنه صارخةً هي الأخرى: أبي!

بدوره لم يتمالك فيكتور أعصابه وصرخ من الصدمة قابضًا بيديه على رأسه، ثم شعر بضيق في صدره، فطلب منهم أن يحملوه إلى السرير؛ لأنه لا يستطيع التقاط أنفاسه.

حمله تميم ويوري إلى السرير، فأشار بيده المرتعشة إلى الدرج المجاور للسرير أن افتحوه، ففتحه تميم ليجد بداخله بخاخة ربو فناوله إياها بسرعة، ثم رجع خطوات إلى الخلف ليقف إلى جوار يوري وأبيه ليتأمل مشهدًا لا يراه إلا في الميلودراما المسرحية.

أخذ فيكتور شهيقًا عميقًا من البخاخة ثم أخرج زفيرًا بطيئًا وكرر العملية مرتين، ثم سكت تمامًا ليسترخي. استعاد عافيته بعد دقائق، فأصابه البكاء والخوف مجددًا وقال:

- كيف ذلك؟ ماذا يحدث هنا؟! هل أنت زوجتي مارجاريتا بحق؟ هل أنت ابنتي كلارا؟!

كانت مارجاريتا تجلس بجواره على السرير، فقبضت بيديها على ذراعيه وأجابته بانفعال:

- نعم يا فيكتور؛ أنا زوجتك مارجاريتا، وهذه كلارا ابنتك، ثلاثين سنة وأنا أظنك في تعداد الموتى وأذهب لزيارة قبرك، كيف تركتنا طيلة هذه السنوات تلطمنا الأيام واحدًا تلو الآخر؟ لأجل ماذا فعلت هذا بنا وبنفسك؟؟

- قبري؟ أخبريني، هل تزوجت يا مارجاريتا؟

- لا، لم يحدث، ولم أفكر يومًا في غيرك قَط.

- الحمد لله. لا يا حبيبتي أنا لم أترككما ولم أرتكب جريمة، لا تصدقي ما يقال لك. بماذا أخبرتهما يا أنطون؟

- أبدًا يا صديقي، لم تسعفني الظروف لأن أخبرهما بكل التفاصيل، لم ألتقِ بمارجاريتا وكلارا إلا منذ سويعات، وهول الصدمة لما علما بحياتك طغى على كل حديث.

- حبيبتي! بالفعل تواصلت معي المخابرات الأمريكية بواسطة أحد زملاء العمل، لكنني لم أقبل أن أبيع نفسي رغم الإغراءات التي عُرضت عليَّ، والفاقة التي كنا نَمُرُّ بها لو تذكرين، بل ورغم كرهي الشديد للسوفييت. وكما تعلمين أني لا أملك لساني ولا أتحكم به، وكثيراً ما كنت أتكلم بأريحية مع زملائي حول إعجابي بالحياة الأمريكية والمجتمعات الغربية وعن مزايا الانفتاح وعيوبه، بل وكنت دائم اللمز بقادة السوفييت والحزب الشيوعي. كان لي زميل تعرفينه، اسمه سايمون، يحرص على السماع والمناقشة، وكان دائمًا يبدي إعجابًا بشجاعتي واهتمامًا كبيراً وتأييدًا لكل ما أقول. حتى إنه في يوم اختلى بي وعرض عليَّ صراحة التعاون مثله مع الـ CIA وإمدادهم بمعلومات عن النشاط النووي في المفاعل، وعن رادار دوجا الضخم، وعن الحياة في داخل بريبيات، مقابل مكافآت مالية كبيرة، إلا أني غضبت ورفضت رفضًا قاطعًا ونهرته عن الحديث معي مرة أخرى وإلا أبلغت عنه، فاستبقني ووشى بي عند أحد القادة الذين كان يتملقهم وينافقهم وذكر له ما كنت أقول في حقه تأمينًا لنفسه، وقد بلغني هذا الأمر فعلمت أني هالك لا محالة، لشديد بطش هذا القائد. وبالفعل لم يمضِ يومان حتى صرت في خبر كان.

في هذين اليومين كنت متخبطًا جدًّا في أفكاري وقراراتي، لم أعلم أين الصواب؛ هل أخبرك بما حدث أم أتكتم عليه لعلمي بقلقك الشديد وانفعالاتك غير المحسوبة، ولم تكن لي طاقة بملامك عليَّ كذلك، فآثرت الصمت، علَّ وعسى أن تكون غمة وتنجلي بعد حين. إلا أن الخوف من المصير المجهول كان يغلبني، والشعور بأني قد لا أرى كلارا مرة أخرى يقتلني، فقررت في اليوم السابق لاختفائي الذهاب إلى صديقنا أنطون لأحضر شيئًا لكلارا. ثم حدث ما حدث في الليلة التالية؛ ليلة انفجار تشيرنوبل، حيث تم اقتيادي إلى مكان مجهول، ذقت فيه كل ألوان العذاب، لأجد نفسي متهمًا رسميًّا بعد ذلك بالتخابر مع الأمريكان ومحكومًا عليَّ بالسجن الطويل، وعلى ما يبدو أنهم أشاعوا خبر وفاتي في ظل الأحداث الملتهبة؛ لكيلا تزداد فضائحهم أمام المجتمع الدولي. ظللت حبيس أربعة جدران ظلمًا وجورًا، حتى صدر بحقي عفو رئاسي في 2008. خرجت لا أعلم شيئًا عن أي شيء؛ لا أذكر من أصدقاء بريبيات إلا المخلص أنطون فذهبت إلى بيت والده في كييف، ثم قطعت الأرض بحثًا عنك وعن ابنتنا، سافرت إلى أخيك ألبرت في موسكو لأسأله عنك، فلم أجد منه ترحابًا، وأبلغني بما حدث بينكما من قطيعة تامة. سألت عنك في صحيفة كروكوديل التي عملتِ بها، فحصلت على عنوانك ولم أصل إلى أي معلومات أخرى، فطِرتُ إلى العنوان فأبلغني بعض الجيران أنك غادرتِه إلى مصر منذ أسابيع قليلة. أصابني الجنون؛ لم أدرِ هل تزوجتِ أم ماذا حدث على وجه التحديد. اسودَّت الدنيا في عينيَّ، فعُدت إلى كييف خائبًا متحسِّرًا مسلِّيًا نفسي بمزيد من سنوات الحزن والوحدة، عاودت السفر إلى موسكو بين الوقت والآخر لكن بلا جدوى، حتى دبَّ اليأس في قلبي وخارت قواي واستسلمت للوحدة والموت البطيء، لم يؤازرني في محنتي سوى أنطون وأسرته فكانوا

نِعمَ الأصدقاء، لم يتخلوا عني قَط؛ كان أنطون دائم الزيارة والسعي في حاجتي هو وابنه، لكَم تمنيت أن يصير يوري زوجك يومًا ما، كلارا!

- أبي! أنا تزوجت وأعيش في مصر منذ تسع سنين، وهذا زوجي تميم.

- حقًّا! اعذرني يا تميم، لم أنتبه حتى اللحظة لأن أتعرف بك، أقْبِل يا بني.

أقبل تميم وسلَّم عليه بوجه محتقن تتدافع عليه ملامح الإحراج والغيرة، ثم استدرك فيكتور حديثه:

- ذكرتِ يا حبيبتي أنكما تعيشان في مصر منذ تسع سنين، فما الذي أتى بكما اليوم؟

- كانت أمي تشتاق إلى زيارة بيتنا في موسكو، وعلمت وقتها بالصدفة وأنا أبحث على الإنترنت أن بريبيات أصبحت مزارًا سياحيًّا، فاتفقت أنا وتميم أن نرتب لها زيارة إلى روسيا، تصحبها زيارة مفاجئة إلى أوكرانيا ومنها إلى بريبيات، لم نكن نعلم أن القدر يخفي لنا اللقاء بيوري الذي يعمل مرشدًا سياحيًّا لرحلات تشيرنوبل، في الجولة تعرَّف على ملامح أمي ودعانا لزيارة العم أنطون في كييف، والذي عرَّفنا بدروه بأنك حيٌّ ترزق لله الحمد.

- ترتيب عجيب لا يصدقه عقل!

- صحيح، من يصدق كل هذا يا أبي؟!

- يا تميم! أستأذنك يا بني أن تفتح الخزينة في دولاب الملابس هذا، أدخل إليها الرقم السري: 1986، وأحضر العلبة التي بداخلها.

توجَّه تميم مباشرة إلى الدولاب وقد بدأت نفسه تطيب بهذه الألفة السريعة التي حدثت بينه وبين حَمِيه. أدخل الأرقام وفتح الخزينة،

فوجد فيها بعض الأوراق والنقود وعلبة بنيَّة صغيرة من القطيفة، فأخذها وأغلق الخزينة وعاد ليسلمها إلى فيكتور:

- تفضل يا عمي.

- أشكرك يا بني. أتدرين يا كلارا؛ لقد ظل أنطون محتفظًا بهذه العلبة طيلة 22 سنة، حتى التقيته بعد خروجي فسلمني إياها كما هي، وهي لك يا حبيبتي، افتحيها.

أخذت كلارا العلبة بترقُّب وفتحتها، فوجدت بداخلها خاتمًا ذهبيًّا على شكل وردة، فوضعت يدها على فمها وشهقت من الفرحة، ثم عانقت أباها وقبَّلَته، فأردف قائلًا:

- حينما تخوفت يا ابنتي أن لا ألقاك مجددًا، أوصيت أنطون بشراء هذا الخاتم من متجر والده في كييف كهدية زواجك، وطلبت من أمك الذهاب إليه بعد يوم لاستلامه، ثم جرى ما جرى.

انحنى تميم على رأس فيكتور ليقبِّلها ثم قال له:

- وها قد جاء اليوم يا عمي الذي تتحقق فيه أمنيتك وترى كلارا عروسًا جميلة.

- نعم نعم؛ وأتمنى أن تكونا سعيدين في حياتكما معًا وأن تصون ابنتي جيدًا.

- بالتأكيد يا عمي، بل ولن تكتمل فرحتنا إلا بك.

قالت مارجاريتا بلهفة:

- من اللحظة لن أتركك أبدًا يا حبيبي مرة أخرى، ولن أخرج من هذا المكان إلا برفقتك.

- حقًّا مارجاريتا؟

- حقًّا فيكتور، سنخرج من هنا لنستكمل ما تبقى من عمرنا معًا في البيت في موسكو.

فتدخل تميم قائلًا:

- ولِمَ موسكو يا أمي؟! ألا تأتيان للعيش معنا في القاهرة لنرعاكما ونسعد بصحبتكما؟ كلارا!

- نعم يا أمي أرجوكِ، فأنا لا أريد أن نفترق مرة أخرى.

سكتت قليلًا مارجاريتا، ثم قالت:

- اعذريني يا كلارا، اعذرني يا تميم؛ فأنا أريد استعادة ذكرياتي مع فيكتور، لدينا كثير مما يمكننا فعله والاستمتاع به في بلادنا.

فقال تميم:

- وما المانع أن تمكثا في موسكو ما شئتما ثم تأتيا للعيش معنا في القاهرة، وأعدكما بأن كل شيء سيكون جاهزًا لاستقبالكما؟ لا تتعجلا الإجابة، المهم الآن هو أننا قد تبقى لنا يوم أخير في كييف نقوم فيه بإنهاء إقامة الوالد في هذه الدار الكئيبة ثم نعود جميعًا إلى موسكو، وهناك نفكِّر على مهل.

بكى فيكتور بحرقة وقال:

- نعم؛ أنا لا أريد أن أبقى هنا يومًا آخر، أتوسل إليكم لا تتركوني أعيش وحيدًا مرة أخرى.

فقالت كلارا:

- أبدًا، لن نفعل هذا يا أبي، اطمئن.

ثم أتبعت مارجاريتا:

- سأبيت معك هنا هذه الليلة فيكتور لو سمحت لنا الدار بذلك، حتى يأتي تميم وكلارا غدًا في الصباح لإتمام الإجراءات المطلوبة، لنعود ونبدأ معًا حياة جديدة سعيدة.

أحاط الجميع سرير فيكتور بكراسيِّهم، وظلت مارجاريتا تجلس بجواره، وخفَت البكاء وتعالت الضحكات وعمَّت البهجة والفرح الغرفة، حتى أقبل المساء جاء موعد الانصراف على الوعد باللقاء في الصباح الباكر.

في طريق العودة إلى الفندق خيم الصمت على الجميع بعد هذا اليوم الصاخب المشتعل بالأحداث، فلما وصلوا وسلَّموا، قالت مارجاريتا التي لم تتمكن من المبيت مع فيكتور:

- لم يَخِبْ ظني فيك قط يا أنطون، لساني بحق يعجز عن وصفك وشكرك، نِعم الصديق أنت.

- لا تقولي هذا يا عزيزتي، فهذا ما ينبغي أن يكون عليه الحال دائمًا.

***

فور أن أغلقت وراءها باب الغرفة خرَّت كلارا لله ساجدةً باكيةً شاكرةً لعظيم كرمه وفضله، ثم قامت فعانقت تميمًا عناقًا طويلًا ولسان حالها يقول: لم تكن لتكتمل سعادتي اليوم إلا بك. ثم استدارت إلى مارجاريتا واحتضنتها وترَجَّتها ألا يعيشوا متفرقين مرة أخرى.

أخذَتْ حمامًا دافئًا يُرخي جسدها المُجهَد، ثم ارتدت ثوبًا فضفاضًا مريحًا، وألقت بظهرها المتعب على السرير، تقلِّب في صورها التي التقطتها أول أمس في بريبيات مع صوفيا، وصورها التي التقطتها اليوم مع أبيها وأمها، ثم ارتدت الخاتم الذهبي في يدها والتقطت له صورة أخرى.

اختـارت ثـلاث صـور وجمعتهـم كـولاج Collage في صـورة واحـدة لتنشرهـا عـبر حسـاباتها عـلى إنسـتاجرام وفيسـبوك، معلِّقـةً عليهـا:

«منـذ 30 عامًـا مضـت كانـت أمـي تحملنـي عـلى ذراع، وتحمـل أغراضهـا الثقيلـة عـلى ذراع أخـرى، مغـادرةً هـذا المنـزل بسـبب كارثـة إشـعاعية تسـببت في إخـلاء المدينـة بالكامـل إلى غـير رجعـة. كنـت أبـكي بكاء شـديدًا لـتركي دميتي صوفيـا، والتـي التقيـت بهـا اليـوم مجـددًا في نفـس المـكان. ثلاثـون عامًـا مضـت عـلى انفجـار تشـيرنوبل الـذي أودى بحيـاة الآلاف، بـل دمَّـر حيـاة الملايـين إثـر كارثـة إشـعاعية هـي الأكـبر بالتاريـخ، سـحقت زيـف ادعـاء السـوفييت العـدل والمسـاواة واحـترام الإنسـانية والاسـتخدام الآمـن للتكنولوجيـا. ثلاثـون عامًـا عشـت محرومـة مـن أبي الـذي آمنـت بأنـه في تعـداد مـن ماتـوا وهـو يـؤدي عملـه كرجـل إطفـاء كان مـن أول الحاضريـن في موقـع الحـادث، حتـى أكتشـف اليـوم أنـه حـيٌّ يـرزق، في قصـة عجائبيـة يحتـاج سردهـا إلى صفحـات طويلـة، لا ألـوم عـلى مـن قرأهـا ولم يصدقهـا، فلـو كنـت أنـا مكانـه لتشـككت. ثلاثـون عامًـا أعيـش مـع عـدو نـووي خفـي، حرمـت بسـببه مـن أن تكـون لي صغـيرة غـير صوفيـا. ليلـة السـبت 26 إبريـل مـن العـام 1986؛ كانـت ليلـة تبدلـت فيهـا الحيـاة».

#pripyat #chernobyl #ukraine #radioactive #humanity

***

القاهرة، الأربعاء 20 إبريل 2016

ودَّعت كلارا والديها على وعد بجمع الشمل في القاهرة عن قريب. بعد خمس ساعات هبطت الطائرة العائدة من موسكو إلى أرض مطار القاهرة، وعاد الإرسال إلى هاتف كلارا المحمول، لتستقبل على الفيسبوك رسالة من صحفي بالجارديان الإنجليزية بأنه قد قرأ منشورها واطَّلع على الصور بواسطة الهاشتاجز، ويدعوها للمشاركة بقصتها العجيبة في تغطية الصحيفة للذكرى الثلاثين لحادثة تشيرنوبل:

?Chernobyl disaster 30 years on: what do you remember

وألحقها برابط المشاركة:

https://www.theguardian.com/environment/2016/apr/20/chernobyl-disaster-30-years-on-what-do-you-remember

لتبتسم كلارا وتجيبه:

- نعم؛ بكل سرور.

تمت


تنظر كلارا كعادة كل يوم جهة اليمين إلى عجلة الملاهي الدوارة بكبائنها الصفراء، والتي تمُر بها في
طريقها إلى المنزل، فتجذب تنورة والدتها وتشير بإصبعها إلى العجلة، فتجيبها مارجاريتا بأن الأمر قد بات
وشيكًا، ولم يتبقّ سوى خمسة أيام على افتتاح حديقة الملاهي بالمدينة بشكل رسمي، وتعدها بأنها
ستحضر الافتتاح يوم عيد العمال الذي بدأت زينته تملأ شوارع المدينة وتكسوها باللون الأحمر.
تصعد مارجاريتا إلى شقتها في الطابق الثامن بالمبنى 7أ الكائن بشارع سبورتيفنايا، فتخرج المفتاح من
جيبها وتفتح الباب بهدوء شديد، وتهمس في أذن ابنتها أن تدخل بهدوء هي الأخرى وأن لا تحدث ضوضاء
لكيلا تزعج والدها النائم في الغرفة. ثم تتوجه إلى المطبخ لتعد وجبة الهولوبتسي؛ ملفوف الكرنب الذي
يحبه كثيرًا زوجها أليكسي، الشاب الثلاثيني الذي يعمل في وحدة الإطفاء التابعة لمنطقة تشيرنوبل.
تخلع كلارا حذاءها وتطيح بقدميها كل فردة في اتجاه، ثم تنزل بجسدها الضئيل أسفل الأريكة لتحضر دميتها
صوفيا، لتجلسها إلى جوارها على الأريكة وتأكل باستمتاع ثمرات الفراولة التي غسلتها لها أمها بعناية.
كُتُبنا
KOTOBNA
عمرو كامل عمر
رواية
1986
ليلة تبدلت فيها الحياة